"يوميات نائب في الأرياف" توفيق الحكيم (ت: ١٩٨٧)م

و

" خليها على الله" يحيى حقي (ت: ١٩٩٢)م

" دراسة أدبية موازنة"

إعـداد

دكتورة

فاطمة البيومي محمود سلامة

أستاذ الأدب والنقد المساعد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة، جامعة الأزهر الشريف – جمهورية مصر العربية

١٤٤٤ هـ- ٢٠٢٣م

يوميات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ١٩٨٧)و (خليها على الله لـ يحي حقي ت ١٩٩٢)
دراسة موازنة

فاطمة البيومي محمود سلامة
قسم الأدب والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة،
جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني:
FatimaSalama.el20@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

لما كانت أريافنا يكتنفها الكثير من الغموض خاصة علىٰ ساكني المدن' كان لدراسة الأثر الذي يردفنا بمعلومات صحيحة عن هذه الأرياف من شاهد عيان من الأهمية بمكان٠ ولما كانت الموازنة بين كتابين لأديبين تجمع بينهما الكثير من الظروف والعوامل المؤهلة للموازنة كالسن والموهبة والوظيفة كان للدراسة مزيد من الأهمية. وتكمن أهمية دراسة رواية (يوميات نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم ومذكرات (خليها علىٰ الله) ليحيىٰ حقي في أننا نقف من خلالهما علىٰ الكثير من الجوانب الشخصية والثقافية للأديبين ونوع اهتماماتهما وأسلوب كتابتهما ومدىٰ انصهارهما في بوتقة المجتمع 'والوقوف علىٰ دور البيئة في توجيه الأديب وتشكيل أسلوبه٠ - بالاطلاع عليهما يتشكل لدينا فكرة جيدة عن أريافنا في صعيد مصر وغيره في الفترة التي عاش فيها الكاتبان. - كون الكتابين ثمرة عمل كل من الحكيم وحقي بالأرياف. وقد أسفر البحث عن عدة نتائج أهمها:- أن الكتابين يمثلان ثروة أدبية وفكرية عظيمة تتمثل في إمداد القارئ بالعديد من الأفكار عن أريافنا التي لا يجدها في كتب السياسة و الاجتماع.

- نهضت رواية يوميات نائب في الأرياف ومذكرات حقي خليها علىٰ الله بمعالجة أفكار الكاتبين بصورة جيدة أخاذة لما حرصا عليه من إضفاء روح الواقعية علىٰ الحدث، - كلما كان الأديب أكثر اندماجا وتفاعلا مع مجتمعه كان أغزر مادة وأصدق عاطفة وأكثر تمثيلا لقضاياه 'وقد تفوق حقي علىٰ الحكيم في هذا الجانب .- زمن الكتابة جدير بصبغة الأسلوب بصبغة معينة' فلما كان الحكيم قد كتب يومياته وفي الثلاثينات عمره كان أكتر جرأة في النقد بخلاف حقي الذي كتب مذكراته بعد ثلاثين عاما من عمله بالصعيد لذا نجد نقده كصاحب الجواد الأصيل له وقع وليس له لسع.

الكلمات المفتاحية: يوميات نائب - في الأرياف - توفيق الحكيم- خليها علىٰ الله- يحي حقي - دراسة موازنة.

Diaries of a Deputy in the Countryside by Tawfiq al-Hakim (1987) and (Leave it on God, to revive my right, vol. 1992), a balancing study

Fatima Al-Bayoumi Mahmoud Salama
Department of Literature and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Mansoura, Al-Azhar University, Egypt.
Email: FatimaSalama.el20@azhar.edu.eg

Abstract:

Since our countryside was shrouded in a lot of ambiguity, especially on the inhabitants of cities, it was of great importance to study the effect that accompanies us with correct information about these countryside from an eyewitness. The study was more important. The importance of studying the novel (Diary of a Deputy in the Countryside) by Tawfiq Al-Hakim and the memoirs (Leave it on God) by Yahya Haqi lies in the fact that we stand through them on many personal and cultural aspects of the writers, the type of their interests, the style of their writing, the extent of their melting in the crucible of society, and standing on the role of the environment. In directing the writer and shaping his style.- By examining them, we have a good idea of our countryside in Upper Egypt and elsewhere during the period in which the two writers lived:- The two books represent a great literary and intellectual wealth represented in providing the reader with many ideas that he does not find in books on politics and sociology about the Egyptian countryside. Because of their keenness to give the event a spirit of realism.- The more the writer integrates and interacts with the people of his society, the more material, the truer the emotion, and the more representative of his issues. 'My right has outperformed the wise in this aspect.' In his thirties, he was more daring in

criticism, unlike Haqqi, who wrote his memoirs after 30 years of working in Upper Egypt, so we find his criticism as the owner of the purebred horse that has a sound and has no sting.

Keywords: Nabeeb's diaries - In the countryside - Tawfiq Al-Hakim - Keep it on God - Yahya Haqqi - A balancing study.

المقدمة

الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده ،ويدفع عنا بلاءه ونقمه، يا ربنا لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما تحب ربنا وترضىٰ، وأصلىٰ وأسلم علىٰ أشرف خلقه وخاتم رسله سيدنا محمد صلىٰ الله عليه وسلم وعلىٰ آله وصحبه، وبعد.

فلما كان الريف المصري شيء شبه مجهول بالنسبة لساكني المدينة كان لدراسة الأثر الذي يرفدنا بمعلومات صحيحة من شاهد عيان عن هذا المكان من الأهمية بمكان.

ولما كانت الموازنة بين كتابين لأديبين تجمع بينهما الكثير من الظروف والعوامل المؤهلة للموازنة ، كالسن والموهبة والوظيفة كان للدراسة مزيد من الأهمية.

وتكمن أهمية دراسة رواية " يوميات نائب في الأرياف" لتوفيق الحكيم ومذكرات "خليها علىٰ الله " ليحيي حقي في كونها:

- تعرفنا علىٰ كثير من الجوانب الشخصية والثقافية للأديبين ونوع اهتماماتهما وأسلوب كتاباتهما ومدىٰ انصهارهما في بوتقة المجتمع، والوقوف علىٰ دور البيئة في توجيه الأديب وتشكيل أسلوبه.
- بالاطلاع عليهما يتشكل لدينا فكرة جيدة عن أريافنا.
- كونهما ثمرة عمل الحكيم وحقي في الأرياف.

وتتلخص مشكلة البحث في عدة تساؤلات تثيرها فكرته ومن ثم تتطلب الإجابة عنها لعل أهمها:

- هل هناك ثمة اختلاف في الرؤىٰ المشتركة بين الكاتبين في عملهما محل الدراسة ؟.

- هل للأسرة والحي اللذين نشأ فيهما الكاتب إسهام في تشكيل عمله الأدبي وتمايز أسلوبه ؟.

أما عن طريقة السير في البحث فتتلخص في:

مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة يعقبهما فهرس لثبت المصادر والمراجع.

- **في التمهيد حرص البحث على إلقاء الضوء على:**
  - نشأة الحكيم وحقي وسيرتهما والظروف التي شكلت شخصية كل منهما
  - أهم القضايا التي حواها الكتابين وأهمية دراستهما

- **الفصل الأول** : الدراسة الموضوعية لـ "يوميات نائب في الأرياف" و"خليها علىٰ الله"

- **الفصل الثاني**: الدراسة الفنية للكتابين محل الدراسة .

- **الخاتمة:** بيان بأهم النتائج التي أسفر عنها البحث وأهم توصياته .

التمهيد

الحكيم وحقي" النشأة والسيرة

سيرة الأديب أمر هام وضرورة تقتضيها أية دراسة أدبية ، خاصة ما يتعلق بالرواد والمشاهير، وجميل بنا أن نأخذ سيرة هؤلاء العظماء من مصدرها الأصيل. تلك السيرة التي تكشف عن مكونات الشخصية وروافد تجربتها وأسباب سيرها في اتجاه ما.

أولا: توفيق الحكيم

سأقتصر في هذا المبحث – غالبا- علىٰ ما كتبه الحكيم عن سيرته في روايته "سجن العمر" الذي بيّن في بدايتها أنه يعنىٰ فيها بتفسير وتحليل سيره في حياته : لا نتحرج من الخروج قليلا كما اعتدنا في بلادنا من وضع الأهل والآباء داخل قوالب جامدة وأطر ثابتة لصور من الكمال والورع... لا بد إذن من بعض الشجاعة والصراحة لنعرف علىٰ الأقل شيئا من تركيب طبعنا هذا الطبع الذي يسجننا طول العمر.[١]

ولد أديبنا حسين توفيق إسماعيل بك الحكيم في محرم بك بالإسكندرية سنة ١٩٠٢م علىٰ الأرجح[٢] لأب من الدلنجات من ضواحي مدينة إيتاي البارود بمديرية البحيرة، وأم من أصل تركي أو فارسي أو ألباني. كان والده محبا للأدب،كانت له مكتبة تحوي الكثير من الكتب الأدبية والدينية: .....وبعد ميلادي بعدة سنوات وضعت والدتي أخي الأصغر والوحيد الذي سماه والدي

(١) سجن العمر. توفيق الحكيم ص ٧، دار الشروق، الثانية ٢٠٠٨م.

(٢) لأن د/ إسماعيل أدهم يرىٰ أنه ولد سنة ١٨٩٨م ووالدته ترجح أن ولادته كانت سنة ١٩٠٢م. من أعلام الأدب المعاصر ص ١٢٩.

"زهير" تيمنا بالشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمىٰ الذي كان يحفظ معلقته المشهورة"(١)

ويمدنا الحكيم ببعض صفات والده – في معرض حديثه عن أخيه زهير وعنفه وجرأته : ".... ولعله ورث ذلك من والدته ميراثا كاملا.أما أنا فكنت كلما كبرت ملت إلىٰ الهدوء والتأمل واتخذت الكثير من سمات أبي مع بركان داخلي في أعماقي هو "والدتي" مثل بركان " فيزوف " ينشط ويخمد فترات ودورات".(٢)

كانت تربية الحكيم تربية صارمة لا تعرف اللهو ولا المرح كبقية الأطفال في سنه: علىٰ أن طفولتنا بوجه عام لم تكن طفولة مدللة" (٣)

– تعد الكتاتيب – التي كان يلتحق بها الحكيم في كل بلد تحل به أسرته– أولىٰ مراحل تعليمه. "... ولا بد أنهم أرسلوني إليها في سن مبكرة جدا"(٤) وعن عدم انتظامه بمدرسة واحدة وأثر ذلك عليه نفسيا ودراسيا يقول : " كان لتنقل والدي المتكرر بين بلدان الأقاليم تبعا لتعاقب حركات التنقلات القضائية بين العام والعام

(١) سجن العمر ص ٣٦.

(٢) السابق ،ص ٥٣. بركان فيزوف، يقع علىٰ خليج نابولي في كامبانيا بإيطاليا، هذا البركان من أشهر البراكين في التاريخ، ومنذ القدم شاهده الرومان وسجلوا نشاطاته المتكررة، وقد وصف المؤرخ الروماني بليني Pliny ثورته المدمرة عام ٧٩ ميلادية بعد فترة خمود طويلة ينظر : لسنا بمأمن لله جنود السماوات والأرض، دكتور: خالد فائق صديق العبيدي، ص ٢٩٧ ، ٢٠٠٧،دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

(٣) سجن العمر ص ٥٨.

(٤) السابق ص ٦١.

ما حرمني الانتظام في سلك مدرسة واحدة سنة دراسية كاملة. لقد مسح والدي خريطة القطر المصري مسحا في مدىٰ أعوام قلائل". (١)

وللحكيم طبيعة تميل به إلىٰ الانزواء جسمانيا عن الناس، وأنها شيء غريزي غير مفهوم: " إني أجفل دائما من أي صلة جديدة لا أفتح باب نفسي بسهولة لأول طارق... إني في أغلب أحوالي قاعد هامد في حوار دائم مع نفسي أفك الكون وأركبه... لقد ضاع مني الكثير من قدراتي وموهبتي إذا كان لها وجود بسبب طبيعتي المثقبة كالغربال بمائة ثقب من القعود والتردد والإهمال". (٢)

ويمدنا يحيىٰ حقي ببعض صفات الحكيم التي علىٰ رأسها تواضعه وحياؤه وعزوفه عن الناس – وكانا معا في مدرسة الحقوق : " أذكر أنني ما سمعته قط يذكر لأحد مفاخرا أنه يؤلف المسرحيات، وكان قد فعل وهو ما يزال طالبا معنا... لقد خدعني توفيق الحكيم عن نفسه بصمته وحيائه وعزوفه عن الناس وتهيبه الغرباء. (٣)

– تلقىٰ الحكيم تعليمه الأساسي في أكثر من مدرسة ،منها مدرسة محمد علي ثم المحمدية بالقاهرة، ثم دمنهور الابتدائية. وكانت دراسته الثانوية بالإسكندرية برأس التين، ثم العباسية الثانوية بالإسكندرية، ثم حصل علىٰ ليسانس الحقوق سنة ١٩٢٥م من مدرسة الحقوق بالقاهرة . (٤)

سافر إلىٰ فرنسا لمدة ثلاث سنوات لدراسة الحقوق والحصول علىٰ الدكتوراة في القانون بيد أنه عاد إلىٰ مصر دون الحصول عليها كما أمّل له والداه : "... فإن

(١) سجن العمر ص ٦٨.

(٢) السابق ٢١٨: ٢٢٠.

(٣) خليها علىٰ الله ،القصص ٦، يحيي حقي، ص ٣١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٨٧م..

(٤) قمم أدبية، د. نعمات أحمد فؤاد، ص، ٢٣٧،، الطبعة الثانية، عالم الكتب،١٩٨٤ م

بطء الفهم عندي وواعيتي الضعيفة، بالإضافة إلىٰ أعباء الجهاد الثقافي الشامل الذي ألقيت بنفسي كلها في لجته، مع الفهم الفكري الذي استولىٰ علي أمام موائد الحضارة الكبرىٰ كل هذا لم يترك لمثلي القوة والقدرة علىٰ حمل عبء آخر" (١)

ظهرت ميول الحكيم العلمية في سن مبكرة، كما يفهم من والدته: إنه لم يكن يلعب كالصبية الذين في مثل عمره، وكان في إجازة الصيف يغرق في مكتبة والده حتىٰ استوعبها جميعا قبل أن يلتحق بالحقوق، كما أنفق أغلب مصروفه في شراء الكتب.(٢)

روافد تجربته :

كان من أهم روافد تجربة الحكيم -كما يحدثنا- : الموهبة والهواية، وصقّل هذه الهواية لديه. حفظه الكثير مما كان يمثله جورج أبيض كشخصية عطيل وأوديب وغيرهما وإلقائها بطريقته وأسلوبه مع بعض زملائه من هواة الفن في وقت الفراغ وكثيرا ما ارتاد دار الأوبرا: ... وعشت في شقة عمي في حرية تامة... ما كان يمكن أن تتاح لي في كنف والدي ووالدتي وتحت ضغطهما المستمر الذي كان سيحول قطعا دون ارتياد المسارح والانغماس في مثل هذه الحياة.(٣)

وكان لمحفوظه من الشعر العربي إسهامات في إشباع هوايته وصقل موهبته- هو وزملائه- : فجعلنا نتبارىٰ في حفظ المئات من الأبيات ونتنافس في المطارحات الشعرية ويباهي بعضنا البعض بكميات محصوله الشعري وكانت الذاكرة في قوة شبابها النضر فحوت الكثير.

(١) سجن العمر، ص ٢٢٤

(٢)من أعلام الأدب المعاصر جمال الدين الرمادي ص ١٢٧ ،دار الفكر العربي ، ١٩٦٢م.

(٣) سجن العمر ص ٨.

ولعل ميل الحكيم إلىٰ المسرحية القائمة علىٰ خلق الإنسان من الحوار لا من الوصف هو ما يلائم طبعه وبالتالي كانت بداية أعماله المسرح :... لماذا أهي وراثة ..... أهو روح الجدل والمنطق والتركيز ووضع الكلمة في موضعها وحوار النفس وقلق القاضي وميزانه عند والدي كل ذلك أقرب إلىٰ روح المسرح[١]

ويأتي تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م ويرىٰ الحكيم أن هذا التصريح ما هو إلا تنويم للشعب بما يسمىٰ بالديمقراطية وهي في الحقيقة ديمقراطية مزيفة' فصور ذلك في كتابيه " شجرة الحكم " و " تأملات سياسية ".

وقد أثار ظهور هذين الكتابين غضب حكومة محمد محمود فأمرت بإحالة الحكيم إلىٰ مجلس تأديب ثم عدلت عن مجلس التأديب ورأت رفته ثم عدلت عنه واكتفت بخصم خمسة عشر يوما من راتبه.[٢]

ثم ألف الحكيم بعد ذلك مسرحية " براكسا" التي ظهرت بالفرنسية باسم "مشكلة الحكم" وتتلخص فكرتها في " أن فساد الديموقراطية هو المسئول عن فساد الملكية... مسؤول عن كل شيء[٣].

عين الحكيم وكيلا للنيابة في أرياف مصر لمدة أربع سنوات من١٩٣٠: ١٩٣٤م ،ألف خلالها روايته "يوميات نائب في الأرياف" التي هي محل الدراسة.

ثم عين رئيسا لقلم التحقيقات بوزارة المعارف العمومية ثم اعتزل خدمة الحكومة وتفرغ للإنتاج الأدبي الخالص، حتىٰ اختير مديرا لدار الكتب المصرية

(١) سجن العمر ص ١٢٧

(٢) قمم أدبية، نعمات أحمد فؤاد، ٢٤٥، ٢٤٦.

(٣) السابق ص ٢٤٦.

فعضوا للمجلس الأعلىٰ لرعاية الفنون والآداب ثم عين مندوبا للجمهورية العربية المتحدة في منظمة اليونسكو بباريس.[١]

- أثرىٰ الحكيم المكتبة العربية والإسلامية بالعديد من المؤلفات التي تربو علىٰ المائة والثمانين كتابا ما بين رواية ومسرحية ومقالة ومختار التفسير وأوبريت، وكلها مطبوع باللغة العربية ،وبعضها نشر باللغة الأجنبية.[٢]

- **توفي توفيق الحكيم في** : ٢٦ يوليو ١٩٨٧م.

❁❁❁❁❁

(١) من أعلام الأدب المعاصر ، ص ١٢٩ .

(٢) ينظر يوميات نائب في الأرياف من ص ٣: ٦ .

- ثانيا: يحيي حقي

ولد الأديب الكبير يحي محمد إبراهيم في درب "الميضة" بحي السيدة زينب بالقاهرة المعزية في ٧ يناير ١٩٠٥م

تلقي تعليمه الأول في كُتّاب السيدة زينب، ثم التحق بمدرسة أم عباس الأول خديوي مصر، حصل علىٰ البكالوريا من مدرسة الخديوي ١٩٢١ م ، ثم التحق بمدرسة الحقوق وتخرج فيها ١٩٢٥م .

عمل حقي في أكثر من مكتب للمحاماة بالإسكندرية ودمنهور ولكنه لم يرق له العمل في أي منها [١]. عين معاونا للإدارة في منفلوط التابعة لمحافظة أسيوط لمدة عامين من ١٩٢٧: ١٩٢٨م ، كان لهذه الفترة أثرهام في حياته عامة .[٢]فقد فجرت لديه هذه المدة العديد من المشاعر والأحاسيس التي تبلورت في عملين عظيمين هما مجموعته(دماء وطين) ومذكراته (خليها علىٰ الله) بما يحويان الكثير من الأفكار التىٰ ضمتها لوحاته الوصفية عن هذه القطعة الغالية من أرض مصر الغنّاءة : ولولا هذه الفترة ما وجدنا " تلك النكهة البلدية المميزة والطعم المصري الأصيل، فمن يقرأ أدبه يشم رائحة النيل، وسمو الحب وعشق البطولة، كل ذلك قد أفرزه هذا الحب الغامر لوطنه وأهل منفلوط، وفجرت فيه مشاعر إنسانية عظيمة بما تحمله النفس من هموم الوطن[٣]

---

(١) ينظر خليها علىٰ الله ،ص، ٦٠: :٧٩.

(٢) عشرة أدباء يتحدثون، فؤاد دوارة ، كتاب الهلال، العدد ١٧٢ ص ١٠٦ يوليو ١٩٦٥م.

(٣) يحيي حقي ومجموعته دماء وطين د عبد الرحمن حسين محمد ص ٢٤ مجله الزهراء كليات الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة ١٤١٠ه ١٩٩٠م

وعن وظيفته "معاون إدارة" وأثرها في حياته بعد ذلك :لم أقبل المنصب إلا صاغرا مستسلما ، وقد عانيت فيه مشقة كبرىٰ وامتحنت فيه امتحانا عسيرا عرفت فيه الهم والغم والحسرة والألم، ومع ذلك كان له أكبر الفضل في أن أعرف بلادي وأهلها وأخالط الفلاحين عن قرب ، وأعيش في الحقول بين نباتها وحيوانها ، وأكل بصلها وسريسها.....[١]

عمل يحيي حقي بالسلك الدبلوماسي بوزارة الخارجية - بعد عمله بالصعيد- خمس وعشرين عاما منذ عام ١٩٢٩م وحتىٰ عام ١٩٥٤م قضىٰ منها عشر سنوات داخل مصر ، فعمل بسفارة مصر في كل من جدة وتركيا وإيطاليا وفرنسا وليبيا. ثم اختير بعد عودته إلىٰ مصر ليكون مديرا عاما لمصلحه الفنون ثم رئيسا لتحرير مجلة المجلة من ١٩٦٣م: ١٩٧٠م .

ولا شك أن هذه الفترة شاركت في تكوين يحيىٰ الأدبي وصقلت معارفه عن الآخر وأسهمت في نقل تجاربه واتضح ذلك في عدة مقارنات منها مقارنته بين الرواية العربية والروية الغربية وشاهد ذلك ما كتبه في مؤلفه " فجر القصة المصرية" [٢] **وكذلك مقارناته حول التعليم في بلادنا وعند الغرب والمحاكمات عندنا وعندهم** .ولم لا وقد رأىٰ عن قرب - في هذه الفترة - ناس من غير أبناء وطنه - يحملون صفات مختلفة ،مما كان سببا في نقل العديد من اللوحات الوصفية والقصص القصيرة :" أعيش في تركيا وسط شعب غريب يجمع بين المتناقضات القوة والرقة عيون بعد أن تبرق بلهيب نظرة النمر الجائع تترقرق فيها السماحة وحب الدعابة[٣]

(١) - يحيي حقي ومجموعته دماء وطين ، ص٩٧.

(٢) فجر القصة المصرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م

(٣) دمعة فابتسامه ،يحي حقي، ص ٤١

عمل حقي عشر سنوات بعد عودته من أوروبا ١٩٣٩م مديرا لمكتب وزير الخارجية فعمل بمكتب النحاس باشا ومحمود النقراشي، وابراهيم عبد الهادي وغيرهم .

ويسأل د. عبد الرحمن حسين عن هذه المدة الخصبة التي قضاها حقي في قلب السياسة ، لماذا لم يمدنا حقي ببعض الأحداث التي شهدتها هذه الفترة وهي أحداث لا شك في أهميتها :" فلو كتب عنها لأخرج لنا كنوزا دفينة لن يكشفها غيره ..... فلديه ما ليس لدي الغير ممن لم يشهدوا هذه الفترة[١]

ومن العوامل الأخرىٰ التي أسهمت في تكوينه الأدبي، وتحديد اتجاهه، وفي تفضيل اللوحة القلمية شكلا قصصيا وفي الاهتمام بمحدودية اللفظ وفي إيثار الواقعية كمدرسة انتحاها[٢]:

البيئة:

وبيئة حقي بشقيها الأسرىٰ والمكاني كان لها الدور البارز في صبغة أدبه بصبغة معينة عرف بها، فيذكر بعض المواقف لأمه تؤكد حفاظها علىٰ اللياقة ومراعاة مشاعر الغير : "... وأن يكون الكلام بقدر. فالكلام شأنه شأن الثياب إذا كان فضفاضا زائدا عن اللازم أضر بصاحبه : وربتنا فوق هذا وذاك بنظراتها إذا كنا في مجمع من الناس نظرات تحوط علينا وتعلمنا كيف ينبغي أن نجلس وكيف ينبغي أن يكون الكلام المهذب وتقيد علينا كل زلة لسان وإن كانت بريئة وتنبهنا إليها إذا انفض الجمع" [٣]

---

(١) يحيي حقي ومجموعته دماء و طين ،ص ٢٩

(٢) ينظر تطور فن القصة القصيرة في مصر من ١٩١٠ الىٰ ١٩٣٣ سيد حامد النساج ص ٢٨٠ ، ٢٨١، دار الكاتب العرب، القاهرة، ١٩٦٨ م

(٣) خليها علىٰ الله ص٨

ولأمه فوق ذلك الدور الأسمىٰ في غرس الدين في نفوس أبنائها، فقد نشأوا علي سماعها قارئة لكتاب الله والكتب الدينية، وهي معنية باللحظة وتراها تخص المناسبات الدينية بمزيد عناية فتحتفل بالمناسبة مع أولادها فنشأوا علىٰ حب الدين واحترام تعاليمه.

فلها في ليلة النصف من شعبان طقوس معينة لعل أهمها إعداد الفاخر من الطعام والاجتماع بأولادها في جلسة بعد صلاة العشاء تتلو فيها قدرا من القرآن الكريم بصوت رخيم يرددونه خلفها تردفه بأدعية معينة متوارثة جيلا بعد جيل(١).

فإذا سلطنا الضوء علىٰ أسرته من الناحية الثقافية وجدنا جوا مفعما بالعلم معنيا بالثقافة، محبا للقراءة ،فعمه محمود طاهر حقي كان صاحب مجلة الجريدة الأسبوعية، ويعد أحد رواد فن الرواية ،وله عدة روايات لعل أبرزها رواية" عذراء دنشواي" التي نشرت١٩٠٦ م . وله من الروايات أيضا" غادة جمانا"

ونراه يشيد برواية عذراء دنشواي ونجاح مؤلفها في الجمع بين السرد والحوار، إذ انحاز في السرد إلىٰ الفصحىٰ و في حوار العامة إلىٰ العامية وهذا هو الرأي الذي أخذ به أدباؤنا اليوم. (٢)

وإذا كان للأسرة هذا الدور الحيوي فإن للبيئة دورا لا يقل أثرا ، فقد أتاحت له نشأته في حي السيدة زينب – وهو من أكثر أحياء القاهرة شعبية– الفرصة للاختلاط بالناس وتفهم الروح المصرية ووصفها وصفا دقيقا في أعماله وقد ظهر ذلك بوضوح في عمله الروائي " قنديل أم هاشم".

(١) من فيض الكريم ،يحي حقي ، ص٣٧ نهضة مصر للطباعة و النشر، ٢٠٠٠ م

(٢) ينظر فجر القصة المصرية، يحي حقي، ص١٦٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٩٧م

وكان للصداقة دورها الواضح في حياة حقي وكان من أهم أصدقائه الأستاذ العلامة المحقق/ محمود محمد شاكر، الذي سكن حقي في بيته عشر سنوات، وكان لهذا الجوار وهذه الصداقة أثرها البالغ إذ أتاحت له قراءة العديد من الكتب والدواوين، والوقوف علي أسرار اللغة ودقة ألفاظها يقول عنه محمود شاكر: كان أكثر الموجودين التقاطا للتعبيرات والألفاظ ،وأسرعهم حفظا للشعر، ولديه قدرة فائقة علىٰ اختزال كل ما يعرف ، أما عن أسلوبه: فله شخصية متميزة قائمة بذاتها لا تظهر إلا عند الكتابة كنت ألمح فيه شفافية لا ألمحها في غيره. (١).

وقال عنه صديقه عثمان عسل: كان عذب الحديث رقيق الحاشية دمث الخلق فنان إلىٰ أبعد الحدود. (٢)

- تنوع ثقافته

نظرا لتعلم حقي في مدرسة الحقوق- القسم الإنجليزي- فقد أتاح له ذلك القراءة في أكثر من لغة والاطلاع علىٰ أكثر من فن، وإذا أضفنا شخصية حقي المرنة الشعبية التي تألف وتؤلف، خفيفة الروح التي تحب الاندماج مع الآخرين نستطيع أن نقول بأنه استطاع أن يخرج من هذا كله بتجربة تتميز بالثراء والعمق في آن واحد.(٣)

(١) ينظر جمهرة مقالات محمود شاكر مقال:" يحيي حقي صديق الحياة الذي افتقدته" جمعها وقدم لها: الدكتور :عادل سليمان جمال :الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة . ص٢ وجريدة الأهرام العدد ٣٨٧٢٨، ١٨/ ١٢/ ١٩٩٢م

(٢)جريدة المصري اليوم، في ذكري مولده. إنسانا وأديبا يحيي حقي. أنشودة البساطة، الجمعة ٠١-٠٢-٢٠٠٨ م .

(٣)ينظر تطور فن القصة القصيرة في مصر، سيد حامد، ١٧٤ .

علىٰ أن أهم ما يميز ثقافة حقي إيمانه بأن التجربة والمشاهدة هي أساس المعرفة الحقة ،وأن القراءة التي لا تصحبها التجربة قليلة الفائدة، فالتجربة المبنية علىٰ الرؤية والمشاهدة وخوض غمار الحدث ومعايشة الوقائع والالتحام بالناس، كل هذه الأمور لها السهم المُعَلىٰ في خلق تجربة حية واقعية عميقة ،ويوازن بينه وفتاة ألمانية التقيا في رحلة بإيطاليا فيرىٰ أنها استمتعت برحلتها أما هو فقد شعر بالملل والضياع ." وأدركت وأنا ذاهل آسف أن السبب راجع إلىٰ الفرق في النوع بين ثقافتها وثقافتي وتربيتها وتربيتي، كانت ثقافتي مستمدة من الكتب وحدها أما هي" فلم تكتف بالقراءة بل انتقلت الىٰ الرؤية وتطبيق العلم بالتجربة. (١)

وكان لعمله خارج وطنه دور بارز في تقدير قيمته والاعتزاز به والوقوف علىٰ مزاياه ، وأن لهذ الوطن سمات تستحق الإشادة والذكر، لذا رأىٰ لزاما عليه إظهار محاسنه والتنبيه علىٰ سلبياته وتناول قضاياه .

عمله بالصعيد

عمل حقي بمنفلوط معاونا للإدارة لمدة عامين، كانت تلك الفترة من أخصب فترات عمله ،لما لها من أثر ليس لغيرها إذ تعرف خلالها علىٰ أبناء وطنه فخالط الفلاحين، ووقف عن كثب علىٰ طباعهم وعاداتهم ،اتصل اتصالا مباشرا بالطبيعة الحية والصامتة (٢)

أحب حقي الناس واندمج معهم وشاركهم أفراحهم وأتراحهم، وبادلوه أيضا هذا الشعور فأسروا إليه بما لم يسروا به لأهليهم وأصدقائهم ، استمع إلىٰ ما يحزبهم، ومن ثم كان أكثر إيجابية من الحكيم، ذلك الشاب الأرستقراطي الذىٰ آثر الانغلاق علىٰ نفسه في هذا الريف وفرض علىٰ نفسه عزلة إلا عما يتصل بدائرة

(١)حقيبة في يد مسافر ، يحي حقي ،ص ٢٢٣ ،دار نهضة مصر بالفجالة، ١٩٦٩ م.

(٢)خليها علىٰ الله ص ٩٧

عمله، فحرمنا الحكيم من الكثير من الصور عن هذا الريف، فقد كان بإمكانه أن يمتعنا بصور حية رائقة عن الطبيعة تختلف كلية عن تناول الكثير من الكتاب ومن ثم لم نقف عنده علىٰ الكثير من قضايا الفلاحين ومشاكلهم غير إلماحات تأتىٰ عرضا خلال التحقيقات في بعض القضايا ، ، ولعل عدم اندماج الحكيم – كما سبق أن أشرنا – وراء قلة زاده من قضاياهم ، وقلة إحساسه بما يحزبهم ومن ثم تفاعله معهم ومحاوله تخفيف آلامهم والعمل علىٰ حل مشاكلهم ، فكان كل ما يعنيه " تطبيق القانون كما سيوضح البحث.

– **توفي يحيي حقي** رائد القصة القصيرة في ٩ ديسمبر ١٩٩٢م، عن عمر يناهز سبع وثمانين عاما.

الفصل الأول

"يوميات نائب في الأرياف" و "خليها على الله" دراسة موضوعية

أولا: إضاءة على يوميات نائب في الأرياف و خليها على الله.

- **رواية يوميات نائب في الأرياف**، عمل متميز للحكيم، يعد نموذجا إبداعيا ينفتح علىٰ الحياة الاجتماعية والسياسية في ريف مصر في الربع الثاني من القرن العشرين[١]. ، نشرت الرواية لأول مرة في مجلة الرواية التي تصدر عن مجلة الرسالة ،في مجلد السنة الأولىٰ عام ١٩٣٧م ثم جمعت في كتاب خرج في قرابة المئتين والخمسين صفحة [٢].

ويرىٰ أحمد حسن عوض أن سر جاذبية " يوميات نائب في الأرياف "يكمن في تمردها علىٰ نسق التصنيف النقدي الساكن إذ تراوح بين ثلاثة من الأجناس السردية وهي :

١- نسق اليوميات المتكئ علىٰ بنية التاريخ القصير المنضبط من الحادي عشر إلىٰ الثاني والعشرين من أكتوبر.

٢- نسق الرواية الواقعية التي تعنىٰ برسم ملامح الشخصيات ، وتجيد رسم التفاصيل المترابطة وفضاءات الصراع في عالم الريف .

٣- نسق السيرة الذاتية الذي يخيِّل لنا وحدة الهوية بين الراوي وشخصية وكيل النيابة وأنها في حقيقة الأمر شخصية الحكيم .[٣]

---

(١) – يوميات نائب في الأرياف ، توفيق الحكيم المقدمة ص ١٤،بقلم أ/ أحمد حسن عوض، ، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر ،رقم الإيداع بدار الكتب القطرية، ٢٠١٢، ٣٤٣م.

(٢) توفيق الحكيم أثاره وكتاباته، د/ إسماعيل أدهم، د/ إبراهيم ناجي، الفصل الرابع ، ص ٩٨،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة (طبعة ٢٠٢٢م)..

(٣) – يوميات نائب في الأرياف ، توفيق الحكيم ، المقدمة ، ص ١٧ ، .

أغفل الحكيم في هذه الرواية تحديد السنة التي كتب فيها روايته، كما أغفل ذكر المكان واسم المحكمة واسماء كثير من شخصيات الرواية ، وهو الحريص علىٰ الدقة في الوصف والعناية بتحديد الزمن. وتسأل لم أغفل الحكيم مثل هذه العناصر المهمة؟ مما يرجحه البحث هو أن ما دعاه إلىٰ هذا هو: الرغبة في السرية وعدم التصريح الذىٰ هو من أهم أصول المهنة، وليعطي لنفسه مساحة من البوح بمكنون النفس وما يأخذه علىٰ مسلك بعض الشخصيات المهمة في الرواية كالقضاة والنائب العام ومأمور المركز وغيرهم الذي لا يصح بأي حال من الأحوال أن يأخذ عليهم ما أخذه، وهو الشاب الذي حوكم من قبل لمجرد اتهامه بالتشيع لثورة ١٩١٩م، ولعله جنح إلىٰ ذلك لكونه أراد تصوير نماذج لم يرضىٰ عنها النائب في هذه الأرياف سواء علىٰ مستوىٰ النيابة والقضاء أو علىٰ مستوىٰ الريفيين عامة.

وتحتوي الرواية أحداث اثني عشر يوما من شهر أكتوبر وفي كل يوم يتحدث الكاتب عن حدث جديد له صلة بالفكرة الرئيسة في الرواية .

أهمية هذه اليوميات

لهذه اليوميات أهمية كبيرة يمكن تلخيصها في:

- الإفضاء بما في النفس حين تعجز الكتابة الموضوعية عن ذلك.

- توضيح الكثير من الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية في مصر لاسيما في الأرياف.

- إبراز الوجه المظلم- وإن صح التعبير الوجه الحقيقي- للريف المصري في هذه الفترة، إذ تعكس العديد من صور الفقر والجهل والمرض في هذا الريف.

أما عن المكان الذي جرت عليه أحداث الرواية فيرجح البحث أنه ناحية من نواحي وسط الدلتا وإن لم ينص الحكيم علىٰ ذلك وثمة إشارات تؤكد ذلك .[1]

(١) - انظر يوميات نائب في الأرياف ص ١٤١،، ١٤٢ .

وقد ذهب الأستاذ أنور المعداوي إلىٰ أن المدينة التي كان يعمل بدائرتها الحكيم هي مدينة دسوق إحدىٰ مدن كفر الشيخ [١]

- حوت يوميات الحكيم العديد من الموضوعات منها ما يتعلق بعمل النيابة والقضاة، ومنها ما يتعلق بالجريمة ونوعيتها، ومنها ما يتعلق بذكرياته حول المكان والزمان.

- **" خليها على الله"**

صدر كتاب حقي خليها علىٰ الله سنة ١٩٥٩م بالقاهرة ،وهو عبارة عن مذكرات، تعرض فيها حقي للكثير من جوانب سيرته، وظروف حصوله علىٰ وظيفة ، وذهابه إلىٰ الصعيد بوظيفة معاون إدارة ليرسم لنا خلال العامين اللذين قضاهما فىٰ الصعيد لوحات قلمية حية عن الواقع المعيش هناك، وقد تبلورت صورة الوطن في هذه اللوحات " فلم تكن شخصية حقي هي المحور الذي دار حوله النص بقدر ما كان الوطن هو محور الرؤية والتذكر " ،أشار حقي في هذه المذكرات إلىٰ الدور الخطير الذىٰ لعبته المحاكم المختلطة في عهده وقبل عهده.[٢] كما أشار الىٰ سمات مهملة في مجتمعنا العربي جديرة بالتأريخ كما سيوضح البحث إن شاء الله.

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٨٢٦، تعقيبات، مقال بعنوان الفن بين واقع الفكر وواقع الحياة ، بتاريخ ٢/ ٥/ ١٩٤٩م، وفيه يقول : في حي السيدة زينب جلس توفيق الحكيم إلىٰ مائدة الحياة فتذوق من ألوان الطعوم ما شممت رائحته في (عودة الروح). وفي مدينة دسوق قضىٰ فترة من شبابه وكيلا للنائب العام، يتحدث إلىٰ الحياة وتتحدث إليه، حتىٰ نقل إليك حديثهما ذلك الطلي النابض في (يوميات نائب الأرياف.

(٢) يحي حقي- الأديب صاحب القنديل. فاروق عبد المعطي ،الدكتور - جزء - ١٠٣ سلسلة أعلام الأدباء والشعراء ، ص ٦٧. دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ١٩٩٤م.

" فالكتاب يرسم لوحة وصفية كبيرة لمسيرة عطاء فارس عربي مصري من الفرسان الذين أسهموا في إحداث تغير واضح في حياتنا علما وفكرا وفنا وأدبا وتثقيفا وتنويرا " (١)

ثانيا: الموضوعات التي حواها الكتابان:

القانون بين الحكيم وحقي.

- أمدنا الحكيم بالعديد من المعلومات حول المراحل التي تمر بها أية حادثة جناية ودور المركز فيها، فهي تبدأ بالإشارة التليفونية من الخفير النظامي – غالبا – إلىٰ عمدة البلد بوقوع الجريمة ،ثم منه إلىٰ إبلاغ وكيل النيابة ثم انتقال وكيل النيابة ومعاونيه والمأمور وكاتب التحقيق ومعاون الإدارة وبعض الجنود إلىٰ مكان الحادث، ويكون في انتظارهم معاون النقطة الذي قام بتحرير محضره فور علمه بالحادث، أما عن وكيل النيابة فما عليه في هذا الحادث إلا ملء محضر النيابة واستجواب المجني عليه إن كان في حالة تسمح باستجوابه، وتركه ثانية إلىٰ ضابط النقطة لنقله إلىٰ المستشفىٰ: ... فلم أكد أضع رأسي علىٰ المخدة حتىٰ كنت حجرا ملقىٰ إلىٰ أن حركني صوت الخفير يضرب الباب ضربا شديدا وينادي خادمي صائحا "اصح يا دسوقي" فعلمت أن جناية وقعت وأن الغرائز لم تنم لأني أردت أن أنام". ويمضي الحكيم في تصوير ما حدث بالضبط إلىٰ أن وصلوا إلىٰ مكان الحادث ثم منه إلىٰ دوار العمدة لإتمام التحقيق: .....ومضىٰ التحقيق في شعاب مظلمة لا أمل معها في الوصول إلىٰ شيء ." (٢)

(١) مجلة الفيصل ،قراءة في آخر كتبه خليها علىٰ الله ، عرض ، عبد الرحمن شلش عدد ١٩٣ .

(٢) يوميات نائب في الأرياف ص ١٢، ١٣

ويبدي الحكيم أسفه بل عجبه و سخريته "من العدالة" والمتمثلة في القاضي وإن كان كثيرا ما يسفر عن رأيه عن طريق المنولوج أو حديث النفس، أو علىٰ لسان الغير، أو التعبير بالمقال عن الحال... فيعبر عن خيبة أمل مساعد النيابة في إلقاء مرافعاته في بعض القضايا التي كان قد سهر في تحريرها وإعدادها وتحبيرها وتنميقها قبل موعد الجلسة بأيام، ولكن طريقة هذه المحاكمات حالت بينه وبين إلقاء ما أعد :...إذ يخرج بها من الجلسة مطوية كما دخل بها، وإذا الأحكام قد انطلقت انطلاق القطار في بساطة وسرعة، والعدالة قد جرت مجراها في طرفة عين كأنها جواد السباق من دون حاجة إلىٰ هذا التحليل والشرح والاستشهاد والاستدلال الذي سهر لياليه ليحشو به هذه الأوراق.(١)

ولا شك أن عدم سير العمل بالطريقة الموضوعية الصحيحة يؤدي إلىٰ الكثير من أمراض النفس كالكبت والاكتئاب والإحباط بل واللامبالاة أحيانا والذىٰ عانىٰ الحكيم من بعضها.

ويمدنا الحكيم بمسلك بعض القضاة الذين يعملون في المحكمة التي تقع في دائرة نيابته الذي يعد في حقيقة الأمر ظلما بينا وإن كان في نظر القانون لا شيء فيه: ففي المحكمة قاضيان، أحدهما يطلق أحكامه في سرعة البرق غير آبه بسماع النيابة أو دفاع المحامين، ويعلي من قيمة الغرامة التي لا تقل عنده عن الخمسين قرشا، بينما لا تتجاوز عند زميله المدقق الذي وصفه الحكيم "بالموسوس" العشرين قرشا مما حدا بالكثير من أصحاب القضايا الحرص علىٰ أن تكون قضاياهم مع هذا القاضي. وأدىٰ ذلك بدوره إلىٰ زيادة عدد القضايا عنده زيادة ملحوظة قياسا بزميله.

(١) يوميات نائب في الأرياف ،ص ٧٨، ٧٩.

وينقل الحكيم مشهدا مما يجري في قاعة المحكمة يدلل علىٰ عجلة القاضي وسرعته في النظر في القضايا :.... قضايا المخالفات . محمد عبدالرحيم الدنف لم ينق دودة القطن_ غيابي خمسين قرشا. تهامي السيد عنينة لم يقدم ابنه للتطعيم غيابي خمسين. محمود محمد قنديل أحرز بندقية بدون رخصة غيابي خمسين والمصادرة... غيابي خمسين... غيابي خمسين وانطلق القاضي كالسهم لا يوقفه شيء والمحضر ينادي مرة واحدة حتىٰ يلاحق القاضي، فمن لم يسمع النداء عد غائبا، وحكم عليه غيابيا ومن سمع بالمصادفة فحضر يجري ابتدره القاضي أنت يا رجل تركت غنمك ترعىٰ في زراعة جارك؟ أصل الحكاية يا سعادة البيك... معندناش وقت لسماع الحكايات... حضوري خمسين. غيره. [1]..ولم يحرمنا حقي كذلك من سرد بعض ما يحدث في قاعة المحكمة من سرعة المحامين في النطق بالحكم : يأتون بقطار.. ويعودون بقطار آخر.. بينهما وقت محدود، ينبغي إنجاز هذه الأكوام خلاله.. شهِّل شهِّل.. لا تتاح الفرصة لأن أوجه للشاهد سؤالًا، وإذا وجهته طلب أكثرهم _أنفة وكبرياء_ إلا أن يكون توجيه السؤال من القاضي.. وهذا التكرار يكسر حدة الهجوم ويضيع أثرها، فالأولىٰ التنازل عنه. [2]

وطالما أبدىٰ الحكيم استياءه لما يقع من الأحكام علىٰ كاهل هؤلاء الفلاحين البسطاء دون وقوفهم علىٰ سبب العقوبة، أو ما يحول بينها ، فينقل مشهدا يمثل ردة فعل الجاني إثر سماع الحكم في قضيته، كما حدث مع أم السعد إبراهيم الجرف التي قامت بعض أصبع رجل ممن قاموا بتهدئة الموقف في شجار شب في صحن دارها بينها وبين خاطب ابنتها بشأن (المهر) المسمىٰ بينهما وكيف أن المرأة لم تفهم الفرق بين الجنحة والجناية: فأخبرني القاضي أنه اطلع الآن علىٰ تقرير الطبيب

(١)يوميات نائب في الأرياف السابق ص، ٧٨.

(٢) خليها علىٰ الله ص ٨٥.

الشرعي فإذا الإصابة قد تخلف عنها عاهة مستديمة هي فقد "السلامية" الوسطىٰ للبنصر فاعتدلت في مقعدي وطلبت في الحال الحكم بعدم الاختصاص، فالتفت القاضي إلىٰ العجوز قائلا: الواقعة أصبحت جناية من اختصاص محكمة الجنايات، فلم يبدُ علىٰ المرأة أنها فهمت الفارق، فالعضة في نظرها ما زالت العضة، فما الذي حولها من جنحة إلىٰ جناية؟ آه من هذا القانون الذي لا يمكن أن يفهم كنهه هؤلاء المساكين![1]

- الحكيم و العرض القانوني

يقلل الحكيم من قيمة (العرض القانوني) الذي هو وسيلة للتعرف علىٰ الجاني ، معللا ذلك: بضعف مدارك هؤلاء الفلاحين التي قد تركت هملا علىٰ مدىٰ حكم ولاة من جنسيات مختلفة، تلك المدارك التي لا يمكن أن يركن إليها في حكم أو تمييز... ويشفع قوله بأكثر من دليل منه تلك المرأة التي:.... أحضروا- لها عشوائيا- نفرا ممن أتو الىٰ المحكمة لحضروا جلسة في قضية مدنية تخصهم، ووضعوهم بين القاتل الحقيقي لزوجها لتتعرف عليه.: ..... فما كان منها إلا أن تركت القاتل و أمسكت بمجامع صدر أحد هؤلاء ولكمته في صدره ..... وابتدرته صارخة: غريمي .....[2]

ويقول مؤكدا كلامه بعد أن سرد مشهدا لمتهم في قضية تزوير: ... وقد وضعوا الجاني بين جمع من الفلاحين، وكان الجاني أفنديا فوقفت أمام الصف- وكان قد حضر العرض في ذلك اليوم أحد كبار مفتشي النيابات- فما هالني إلا أن وجدت هذا المتهم قد ترك كل من كان بالعرض وأطال النظر في وجهي وأرجعه فيه : " فكان اللعين يمر بالصف مرا سريعا ويعود فيلقي بصره علي ويفحصني من رأسي

(١) يوميات نائب في الأرياف ص ٣٥.

(٢) السابق ص ١٠٥.

إلىٰ أخمص قدمي فحص المشتبه المستريب، ولم أنس اضطرابي يومئذ" ،فما تمالك إلا أن نطق بصوت عال: لم يتعرف المجني عليه علىٰ أحد، وأمر الحاضرين بالانصراف. (١)

- **الاستئجار على القتل**

مما أفرزته رواية يوميات نائب في الأرياف من أفكار ما يقوم به بعض الفلاحين من استئجار محترف القتل ليقتل له. ويحلل الحكيم أسباب ذلك : ... أهو نقص خلقي في الفلاح يضاف إلىٰ أمراضه الجثمانية والفكرية والاجتماعية الكثيرة. أم إنها قلة مقدرة وضعف ثقة بالنفس منشؤها اشتغاله بأعمال العبيد من قديم في الأرض والزراعة وترك الفروسية والجندية للمغيرين وأقربهم بنا عهدا الأعراب والأتراك .....(٢)

أما حقي فالجاني عنده ريفي جريء يلهث وراء فريسته ككلب الصيد" يقتل بنفسه ،ولعله يرىٰ في ذلك عيبا . ينظر قصة القاتل الذي قطع فريسته "أربع تربع" ووضعها في قفة ،(٣) والشاب الذي قتل جاره في الأرض.(٤)

– ندد حقي بمسلك كثير من الصحف المصرية في إصرارها علىٰ نشر صور القتلىٰ مكبرة علىٰ صفحاتها الأولىٰ ،غير آبهة بحرمة الميت أو مراعية لأبسط مبادئ اللياقة في التعامل مع الجثث، ويرىٰ أن النشر لمثل هذه الصور يعد جريمة لا يرتكبها العالم المتحضر "والعجيب أن هذه الصحف تعلم أنها هي وحدها دون سائر صحف العالم كله ترتكب هذه الجريمة... فهل نحن أقل ذوقًا من خلق الله

(١) يوميات نائب في الأرياف ص ١٠٦.

(٢) السابق ص ١١٠.

(٣) ينظر مبحث ،اللغة والحوار.

(٤) ينظر مبحث الأخذ بالثأر.

جميعًا؟ ما تركت فرصة في حديث إلا انتهزتها.. لأندد بالغلظة وفقدان الإحساس وإنكار أبسط مبادئ الذوق والحياء..." (١)

ويسوق بعض مشاهد الجريمة ليبين مدىٰ الاستهتار والتهاون بنشر هذه الصور، لا فرق في ذلك بين صورة الرجل والمرأة فبعد أن سرد قصة أحد المجرمين وكيف تسنىٰ للشرطة التضييق عليه حتىٰ قتلته ، وكيف كان الإصرار علىٰ إظهار وجه القتيل في الصورة.

".. والمصيبة أن القتيل لا يمكنه الوقوف علىٰ قدميه ولا يتأتىٰ للأبطال أن يرقدوا_ أو يقرفصوا علىٰ الأرض.. فما العمل؟ استدعىٰ المصور فتىٰ وكلفه بأن ينحني ويرفع رأس القتيل وحدها ويثنيها إلىٰ الأمام حتىٰ يظهر وجهه في الصورة... والفتىٰ ميت علىٰ روحه من الضحك". (٢)

ولا يحرمنا حقي من سرد بعض ما وقف عليه عن طبيعة المحاكمات في كل من انجلترا وفرنسا:... في فرنسا تندلق أخبار الجرائم والمحاكمات علىٰ الصحف وتفور كما يفور اللبن... ثم تنسىٰ هذه المحاكمات سريعًا... الصحفيون الفرنسيون _وفي مقدمتهم اليهودي "ألبير لوندر" متخصصون في رواية المحاكمات بأسلوب كله فكاهة وسخرية لا تجده في انجلترا إلا في النادر القليل.

أما في انجلترا فإنهم يؤكدون أن الاهتمام بهذه المحاكمات مرض نفسي خبيث يدل علىٰ فساد في الطبع ويزعمون أنهم أرفع من أن يصيبهم هذا المرض، ولكن الأخبار تكتب مع ذلك بتفاصيل لا تقل عن مثيلاتها في فرنسا، "... اللبن عندهم في إناء مغلق تحسبه خامدًا وهو يفور.. يحدث كل هذا الاهتمام في تستر وحياء وتظاهر بعدم اللامبالاة... لا أعرف شعبًا كالإنجليز يعكف علىٰ الجرائم وتسجيلها

(١) – خليها علىٰ الله، ص٢٥.

(٢) – السابق ، ص٢٦.

وتحليلها... إن هذا من أثر السادية التي يعانيها بسبب كبته لعواطفه وافتخاره ببروده وهو مع ذلك من أكثر الشعوب اهتزازًا للعاطفة.(١)

- **شكاوى الأهالي دلالة ومغزى**

أبدىٰ الحكيم وحقي من استياءهما من كثرة وتفاهة الشكاوىٰ المقدمة إلىٰ النيابة والإدارة، إذ إن هذا يسهم بدوره في شغل أوقاتها ويتعجب الحكيم من هذه الكثرة: ....أهو الظلم حقا أم هو داء الشكوىٰ استوطن دم الفلاح علىٰ مدىٰ أحقاب من الجور(٢): "...ما ذنبي أنا أجرع ما في هذه البلاغات من سخف ينبغي لي أن أقرأ أيضا ما جرىٰ بين ست الدار وجارتها "قطايف" من تبادل الردح والسباب، وما تلقاه المركز من بلاغات فقد الأختام ومحاضر البحث الجاري عن جحش هرب من أمام الباب، وإصابة قدم طفل داس علىٰ قطعة زجاج وسقوط فرع جميزة علىٰ رأس كبش الحاج هباب... (٣)

: أنت متهم يا رجل بأنك غسلت ملابسك في الترعة يا سعادة القاضي ربنا يعلي مراتبك تحكم علي بغرامة لأني غسلت ملابسي؟

-لأنك غسلتها في الترعة.

- وأغسلها فين؟

فتردد القاضي وتفكر ولم يستطع جوابا. ذلك أنه يعرف أن هؤلاء المساكين لا يملكون في تلك القرىٰ أحواضا يصب فيها الماء المقطر الصافي من الأنابيب فهم قد تركوا طول حياتهم يعيشون كالسائمة، ومع ذلك يطلب إليهم أن يخضعوا إلىٰ قانون قد استورد من الخارج علىٰ أحدث طراز والتفت القاضي إلي وقال: النيابة.

---

(١) - خليها علىٰ الله ص٥٣.

(٢) يوميات نائب في الأرياف، ص ١٣٦.

(٣) السابق ص ١٣٦.

-:...النيابة ليس من شأنها أن تبحث أين يغسل هذا الرجل ملابسه ولكن ما يعنيها هو تطبيق القانون. (١)

حقا إن هذه اليوميات: صرخة من رجل القانون والعدالة في مصر ضد القانون المزعوم والعدالة المزيفة – صرخة من الصميم"(٢)

ورغم تأييد البحث لما ذهب إليه الأستاذ / إبراهيم ناجي من أن الحكيم: لم يخلص من فردية باعدت بينه وبين المجتمع ينظر إليه نظرات شخص يشارك الشعب آلامه ولكن من بين غدق السحاب(٣) فإنه لا يعدم عنده الوقوف علىٰ بعض جوانب من التأثر، فتراه يتأثر بمرأىٰ هؤلاء الريفيين المساكين البسطاء الذين لا يجدون رعاية صحية تليق بآدمتهم، فبعد مشاهدته فتاة ممددة في غرفة العمليات بالمستشفىٰ يجرىٰ لها الطبيب عملية في حضور رهط من أصدقائه غير الأطباء – "عرفت منهم بعض الأعيان في ملابسهم العادية ورأىٰ الطبيب يشق بطن الفتاة شقا طوليا من الصدر إلىٰ أسفل البطن ثم أخذ يصف الطريقة البدائية التي أجريت بها العملية " ...ونظرت فىٰ وجه البنت الشاحب وهىٰ كالميتة، ثم إلىٰ جلدة بطنها وقد رشقت بالمسامير في صف طويل كأنها جلد حذاء في يد الإسكافي فشعرت بدوار في رأسي وخفت أن أسقط فاعتمدت علىٰ جانب المشرحة ...ثم يعلل الحكيم سبب هذا الدوار" أتراني شديد التأثر لمرأىٰ الأجسام الحية تعامل معاملة الجمادات أم أنها فضلة من رائحة البنج عبق بها جو قاعة العمليات " (٤) كما أنه كثير التأوه من

(١) يوميات نائب في الأرياف ص ٣١، ٣٢.

(٢) توفيق الحكيم أثاره وكتاباته، د/ إسماعيل أدهم، د/ إبراهيم ناجي ص ٩٧

(٣)السابق ص ٩٨.

(٤) يوميات نائب في الأرياف ص ،٤٨ .

حال هؤلاء المساكين الذين يقع عليهم حكم أو غرم مادي لا يعرفون سببه " ...أه من هذا القانون الذي لا يمكن أن يفهم كنهه هؤلاء المساكين !. (١)

وهذا حقي يتعجب من تفاهة الشكوىٰ المقدمة ألىٰ المركز: ...لا أنسىٰ هذا المنظر الذي شهدته وأنا منشغل في تحقيق قضية تافهة معزة نزلت في حقل برسيم فطارت أسرتان إلىٰ السلاح، هذه لصون الكرامة وأخرىٰ لصد الهجوم ... (٢) كما رأىٰ حقي بأم عينه أثر الفقر والإهمال بادي علىٰ هؤلاء الفلاحين المساكين: ...ففوق حرمان معظم الصعيد _في عهده_ من الماء والكهرباء ناهيك عن المجاري "أو الصرف الصحي _ فإن بيوتهم تكاد تخلو من الأثاث .كما تحدث حقي كثيرا عن فقر أهل الصعيد فوصف مأكلهم ومشربهم وصفا ينم عن فقر مدقع ، وليس أدل علىٰ ذلك من مقاله فراغة عين(٣)

- وللتقليد سهم

ويرىٰ الحكيم أن للتقليد الأعمىٰ دورا في ازدياد معدل الجريمة، فحرْص الريفي علىٰ تقليد جاره في مسلك بعينه حتىٰ وإن أدي إلىٰ الإرهاق المادي والنفسي قد يتولد عنه جريمة:... ونوديت القضية التالية فإذا هي شجار بالهراوات وقع بين والد ست أبوها وبين أهل الزوج السيد حريشة فلقد تم الزواج بين الطرفين آخر الأمر وبعث الزوج بعض أهله ومعهم جمل لاستلام العروس من بيت أبيها فقابلهم الأب محتدا صارخا في وجوههم (جمل) بقىٰ بنتي تخرج علىٰ جمل! أبدا لا بد من "الكومبيل" وتجادل الطرفان في من يدفع ثمن هذه البدعة التي رماها بهم تطور

(١) السابق ص ،٣٥ .

(٢) خليها علىٰ الله ص ٢٤٧ .

(٣) السابق. ص، ١٧٦:١٦٩. .

العصر وأدىٰ الجدل إلىٰ رفع العصي وإسالة بعض قطرات من الدماء لا مناص منها في مثل هذه الظروف. (١)

– كما نجد حقي يتوجه إلىٰ أبناء وطنه بمشاهد حية التقطتها عدسته عن مدرسيه من الأجانب في مدرسة الحقوق، مقارنا بين مدرسينا وعند الآخر، موضحا أن الوجاهة ليست في المظهر بل في الخلق والسلوك مستشهدا بشدة تواضعهم ،فرغم أنهم يعيشون في بحبوحة من العيش – يذهبون إلىٰ المدرسة بالموتيسيكل و الترام "ويعتمدون البساطة في ملبسهم ومسكنهم ".. نظل حائرين في فهم الخُلق الانجليزي حين نعرضه علىٰ ما في طبع بعض أهلنا _في خطئهم في تفسير "العيب" وما العيب إلا العيب في التمسك بوجاهة كاذبة وتأنق مصطنع. علمونا أن الكرامة والمكانة في المجتمع صفات أصيلة في الخُلق والنفس لا في المظهر والملبس"(٢).

– ويتفق الحكيم وحقي علىٰ أن للحكومة دور في كثير من قضايا الريف. فالريف المصري وقع عليه ظلم من ناحيتين: الأولىٰ إهماله في كثير من الجوانب التي بها قوام الحياة كتوفير مياه الشرب والصرف الصحي ثم يجرىٰ محاكمتهم علىٰ شيء ليس لهم يد فيه، وهذا بالطبع لون من ألوان الظلم الاجتماعي الذي كان سببا رئيسا في فتح باب الجريمة علىٰ مصراعيه. الثانية: محاسبته علىٰ أمر لا يدري وجه الخطأ فيه إذ قد حرم من التثقيف بما له وما عليه مما يستوجب العقوبة والحبس، من ذلك قيام أحد الفلاحين باستهلاك قمحه المحجوز عليه في داره فأصبح – في نظر القانون مبددا له :... ونوديت القضية التالية. فحضر رجل هرم مقوس الظهر أبيض اللحية يدب علىٰ عصا فابتدره القاضي: بددت القمح المحجوز عليه؟ : القمح قمحي يا

(١) يوميات نائب في الأرياف ، ص، ٣٦.

(٢) خليها علىٰ الله ، ص٣١.

سعادة القاضي وأكلته أنا والعيال .: معترف، حضوري حبس شهر_ مع الشغل : شهر: يا مسلمين. القمح قمحي زراعتي...مالي فسحبه العسكري. وهو ينظر بعينين زائغتين إلىٰ الحاضرين كأنما هو لم يصدق أن الحكم الذي سمعه حقيقي... ويعلق الحكيم علىٰ هذا المشهد بقوله : إن هذه الجرائم التي اخترعها القانون اختراعا ليحمي بها مال الحكومة أو مال الدائنين ليست في نظر الفلاح جرائم طبيعية يحسها بغريزته الساذجة.[١]

- ثلاثية المأمور والعمدة والفلاح

لا مناص هنا من أن نكشف عن طبيعة العلاقة بين المأمور والعمدة والفلاح عند الكاتبين، تلك العلاقة التي تنم عن ضعف الشخصية وتسلط القوي علىٰ الضعيف، تجد المأمور لا يتورع من أن يطلب من هذا العمدة أو ذاك مطالب ينوء بها جيبه ،ويرىٰ أنها في نفس الوقت لازمة التنفيذ وإلا فرفته محقق، فكثيرًا ما يطلب المأمور من العمدة إعداد مأدبة غداء حافلة بصنوف الطعام الذي يعجز أن يقدمه العمدة لأهل بيته حتىٰ في المناسبات_ إكراما لوكيل النيابة أو غيره ، التي تدل علىٰ جشع المأمور وسوء مسلكه مع العمد ، مما يضطرهم إلىٰ أخذ ما تكبدوه من الأهالي وهم بحالهم فقراء. وقد توارد عند الكاتبين ذكر هذه المشاهد.

فصور الحكيم مشهدًا يوضح ذلك، ففي أحد الجلسات في دوار العمدة لكتابة محضر التحقيق ،سمع المأمور يخاطب العمدة : اسمع يا عمدة! البيك الوكيل لا يحب الخرفان علىٰ الصبح ولا الديوك ولا حاجه أبدًا، ولكن لا بأس من كم زغلولة مدفونة من الأرز والقراقيش إياها والفطير المشلتت! وإن كان عليه كم كتكوت محمر مفيش ضرر، واللبن الرايب طبعا مفيد للصحة، ولا بأس من كم بيضة مقلية في القشدة، وكفاية إياك يا عمدة تعمل حاجه زيادة"، البيك الوكيل أكلته ضعيفة،

(١)يوميات نائب في الأرياف ص ٧٥.

وإن كان عندك عسل نحل بشمعه لا بأس، قرصين جبنة ضاني لا مانع، طبق كعك غريّبة... الغرض حاجات خفيفة لطيفة وأنت سيد العارفين.

أطرقت لهذا الكلام واحمر وجهي ولم أدر ما أصنع ورأيت من الخير أن أسرع بالانصراف فطويت أوراقي علىٰ عجل.... آه لهؤلاء العمد! لشد ما أرثي لحالهم"[١] ".. وجاء ذكر الفلاحين هنا لأن الغرم الذي يتكبده العمدة يقع علىٰ كاهل الفلاح المسكين الذي لا يجد في كثير من الأحيان قوت يومه"[٢]

كما سرد حقي موقفا شبيها بذلك مع مأمور المركز وأحد العمد في منفلوط، وكيف أن المأمور عمد إلىٰ إطالة زمن التحقيق للزوم الغداء ".. وجيء بالطعام تزينه دجاجة سمينة... ولم نكد نخرج من الباب حتىٰ أقبلت امرأة تصرخ وتولول وكادت تمسك بتلابيب العمدة الذي استباح فرخة هذه المسكينة وهي سارحة في السكة، أدركت أن العمدة اغتصب الدجاجة من إنسان ضعيف، وأحسست بخجل شديد بل خفت أن يستجاب دعاؤها فدعوة المظلوم مستجابة[٣]

لم يحرمنا الحكيم من إبداء رأيه في مساوئ المركز _خاصة مأموره_ ويتمثل ذلك في عدة أمور منها:

- سوء استخدام الإدارة للسلطة، فكثيرا ما تقوم الإدارة بالقبض علىٰ أولاد الأعيان وحبسهم احتياطيًا دون جريرة _خاصة أيام انتخابات الوزارة وتحرير محاضر تشرد لهم حتىٰ يحولوا بينهم وبين المشاركة في هذه الانتخابات لتخلو لهم الساحة ويتمكنوا من تحقيق مآربهم : ".... فرأيت المأمور والجاويش يسرعان إلىٰ سجن المركز ويفتحانه ويخرجان منه أشخاصًا تدل هيئتهم علىٰ أنهم من أهالي

(١) - يوميات نائب في الأرياف، ص ٥٠،٥١

(٢) - السابق ص٤٤.

(٣) - خليها علىٰ الله، ص١٧٢، ١٧٣.

النواحي ذات الرخاء ويزجان بهم في حجرة التبن والعلف ويغلقان عليهما بابًا بالمفتاح..." (١)

- تواطؤ إدارة المركز مع بعض العمد الموالين للحكومة ورميهم بأحكام القضاة عرض الحائط.

- القاضي مخاطبًا الحكيم: خلاص الفوضىٰ دبّت في البلد! فأردت أن أفتح فمي أسأله الإفصاح فلم يمهلني ومضىٰ يقول: راحت هيبة الأحكام! أيه المسألة المسألة يا سيدي أني أصدرت حكما مدنيا ضد عمدة من الموالين للحكومة وراح المحضر ينفذ عليه، تعرف حصل إيه؟

لأ.

انضرب بمعرفة العمدة «علقة» لكن «نظيفة» واتحبس أربعة وعشرين ساعة في حجرة التليفون...

- خلو النقطة _كثيرًا_ لا سيما أيام الانتخابات من الملاحظين والبلوكامين : "... علىٰ أننا اليوم لا نلقىٰ ردًا علىٰ الإطلاق، ويد الجرس في يد الحاجب لا يقف لها دوران كأنه يدير طاحونة بُن، ولا ينفك يصيح تارة مهددًا وتارة متوسلًا: أنا في عرضك يا نقطة! كلمة واحدة يا نقطة! اخص عليك يا نقطة.... "

- التزوير المتعمد من المركز لإنجاح العملية الانتخابية لصالح العضو الذي تريده الحكومة.

المأمور مخاطبًا الحكيم: دي ديما طريقتي في الانتخابات ،الحرية المطلقة: أترك الناس تنتخب علىٰ كيفها لغاية ما تتم عملية الانتخابات وبعدين أقوم بكل بساطة

(١) - يوميات نائب في الأرياف، ص ١٠١، ينظر كذلك ص٧٩.

شايل صندوق الأصوات وأرميه في الترعة وأروح واضع مطرحه الصندوق اللي احنا موضبينه علىٰ مهلنا.

الحكيم: شيء جميل: قلتها في شيء من الاستغراب ممزوج بخيبة الأمل. ولم أشأ أن أعقب علىٰ ما سمعت.(١)

والحكيم وإن كان يبدو متحفظا في كلامه، ومقدرا لموقفه كرجل نيابة، وأنه لا ينبغي عليه أن يقحم نفسه في السياسة، لم يحرمنا من إبداء موقفه إزاء ما يسمع من خلال تعليقه علىٰ جملة قالها المأمور معقبًا علىٰ كلامه السابق.

فنظر إلي المأمور نظرة ذات معنىٰ وقال في تنهد: نعمل إيه بس.

وفي هذه العبارة وهذا التنهد الكفاية في جعلي أرثي لحال المأمور وأقدر دقة موقفه ومسؤوليته أمام الرؤساء الذين يطلبون إليه نتائج معينة بالذات بكل الوسائل التي يراها مؤدية إلىٰ الغرض، فإن أحجم أو تردد نكلوا به بغير رحمة ولا شفقة.

وكثيرا ما أشار حقي إلىٰ مثل هذه المواقف وكيف أن حرص المأمور علىٰ وظيفته هو عمله الذي ينبغي أن يدور في فلكه، ففي أحد لوحاته يصور مدىٰ رعب المأمور وشدة ذعره و حرصه علىٰ تقديم واجب الولاء والطاعة لولاة الأمر، فقد أُخْبر بمرور قطار ملكي يقل الخديوي فؤاد في رحلة له إلىٰ الصعيد: ... وسيمرّ القطار بمنفلوط بلا توقف... وقد علمنا من البرنامج موعد مروره ببندر منفلوط في الذهاب والإياب باليوم والساعة والدقيقة... " وكيف خف المأمور واجتهد لهذا الأمر "... إذ اصطف علىٰ الرصيف بجمع غفير من العساكر والخفر وأعيان البلد وجمع من المومسات جيء بهم ليزغردن علىٰ الرصيف إذا بدا القطار اتمامًا للاحتفاء "... مرق القطار الملكي أمامنا بسرعة كبيرة.. مغلق شيش النوافذ كلها.

(١) – يوميات نائب في الأرياف ص١٢٠، ١٢١.

لم نر وجه مخلوق واحد وانطلقت الزغاريد وعلت الهتافات بحياة مولانا الملك وانصرف الجميع "وقفاهم يقمر عيش"[١].

- كما أخذ حقي علىٰ إدارة المركز كثرة تنفيذ الأحكام التأديبية علىٰ العُمَد فعلىٰ كل عمدة أن يقوم بدفع غرامة قدرها «خمسون قرشًا» عن كل جريمة تقع في قريته لإهماله في ضبط السلاح الذي استخدم في الجريمة أو التبليغ عنه قبل وقوعها.[٢]

- تحدث حقي عن دناءة وخسة بعض عساكر المركز وكيف أنهم بدل أن يكونوا يد عون في الضرب علىٰ يد الظالم أسهموا في وقوع الجريمة.[٣]

- **أيها القاضي اتئد.**

لم يتوجس النائب خيفة _من أن يعرىٰ بعض القضاة، ويكشف عن سوء مسلكهم : فإن عمل القاضي لا يعدو أن يكون عملًا روتينيًا غايته تسديد خانات،وكتابة نتائج، وإصدار أحكام كائنة ما كانت، أما التحري، ودقة الملاحظة، وسماع الشهود، وإتاحة الفرصة للنيابة لإبداء رأيها، وحسن الاستماع للمحامين والمتهمين وتمام الاستقصاء، ولملمة شعث القضية وتقليبها علىٰ جميع وجوهها وربط الأسباب بالنتائج بغية الوصول إلىٰ حكم صحيح يقيم العدل ويرفع الظلم، أمور ليست في حساب هؤلاء القضاة، فتجديد الحبس، وحفظ القضية، ورفض المعارضة، والإفراج بكفالة، والغرامة، أحكام شائعة ومألوفة لدىٰ هؤلاء.

فينقل الحكيم مشهدًا حيًا _بكل تفاصيله_ يؤكد ذلك فيأخذنا إلىٰ قاعة المداولة والحكم مصورا عمل يوم لأحد القضاة المتسرعين وإلىٰ أي حدٍ كان هذا القاضي أداة للظلم والجور بدل أن يكون رمزا للعدالة والإنصاف.

---

(١) - خليها علىٰ الله، ص٢٢٧.

(٢) - السابق، ص٢٢٢.

(٣) - السابق، ١٢٧.

فهذا القاضي يركب أول قطار قادما من القاهرة ليصل إلىٰ مكان عمله في التاسعة صباحًا للنّظر في جميع القضايا المدونة في الرول بمختلف أنواعها، ويصدر فيها الأحكام ليلحق بقطار العودة إلىٰ القاهرة في الحادية عشرة صباحًا : ...وانتهت المخالفات مثل لمح البصر، وجاء دور قضايا الجنح وفيها سماع شهود ومرافعة محامين وهي تحتاج إلىٰ شيء من الأناة، فأخرج القاضي ساعته ووضعها أمامه وصاح في المحضر : بسرعة القضية الأولىٰ.

فنادىٰ المحضر _سالم عبد المجيد سقرف. فنظر القاضي في الرول وعرف التهمة والتفت إلىٰ المتهم وهو لم يجتز بعد عتبة باب الجلسة وصاح فيه.

_ ضربت الحرمة؟ كلمة واحدة.. قل من عندك!.

_ يا سعادة البك فيه راجل يضرب حرمته؟!

_ ممنوع الفلسفة كلمة ورد غطاها _ ضربت؟ نعم أو لا؟

_ لأ.

_ فصاح القاضي في المحضر: ناد الشاكية.

فحضرت المضروبة تتعثر في «مَلْسها» الأسود الطويل، فلم ينتظر القاضي حتىٰ تدخل الجلسة. وصرخ فيها : ضربك؟

_ أصل يا سيدي القاضي ربنا يخليك.

_ مفيش أصل. ضرب ولا لأ؟ هي كلمة لا غير.

_ ضرب

كفاية واستغنت المحكمة عن بقية الشهود: كلامك يا متهم. فتنحنح المتهم وجعل يدافع عن نفسه والقاضي مشغول عن سماعه بكتابة الحيثيات ومنطوق الحكم علىٰ الرول "بالرصاص" إلىٰ أن فرغ فرفع رأسه ونطق بالحكم دون أن ينظر إلىٰ المتهم أو ينتظر بقية دفاعه، شهر مع الشغل.

_ يا سعادة القاضي أنا عندي شهادة. لا ضربت ولا بطحت الحكم ظلم. ظلم يا ناس.

_ اخرس: اسحبه يا عسكري.(١)

ولحقي نفس النقد فقد أخذ علىٰ بعض القضاة عدم التريث - كما سبق أن بيّنا.(٢)

- عرَّفنا الحكيم بالكثير من الأماكن التي تخص المركز والنيابة فدخلنا معه مخازنها وخزينتها وعرفنا بعمل وكيلها ومهامه: فمخزن النيابة:.. عبارة عن حجرة تشبه دكان «ألف صنف» فيها من أصناف البنادق والغدارات الريفية والسكاكين والشراشر و المناجل .....والبُلَغ" "والجلابيب" الملطخة بالدم والطين «والصداري» المثقوبة بالرش والبارود، كلٌّ عليه رقمه وتاريخ ضبطه ورقم القضية التي ضبط علىٰ ذمتها.(٣)

- **النيابة العمومية مآخذ ومثالب**

للحكيم على النيابة العمومية بعض التحفظات التي توضح سوء مسلكها منها:

- أن كل ما يعني النائب العام هو مراعاة الدقة والترتيب في محضر النيابة ، بصرف النظر عن الدقة في التحري والحرص علىٰ ضبط الجاني والإخلاص في الوصول لرأي صحيح يخدم القضية ": ....ذلك أني أحب دائما أن أعني بتحرير محضري وأن أجعله مرتبا ترتيبا منطقيا، والمحضر كل شيء في نظر أولي الأمر وهو

(١) - يوميات نائب في الأرياف، ص٧٥.

(٢) - ينظر مبحث القانون بين الحكيم وحقي.

(٣) - مبحث القانون بين الحكيم وحقي ص١١٢ .

وحده الشهادة الناطقة للنائب بالدقة والبراعة ...أما ضبط الجاني فأمر لا يسأل عنه أحد. (١)

- أن الشغل الشاغل للنيابة العليا هو في اجتهاد وكلاء نيابتها في وضع نهاية للقضية أيا كانت هذه النهاية : فالجهات العليا يهمها ويطمئنها "التصرف في القضايا" أي: نفض اليد والفراغ منها علىٰ أي صورة وعلىٰ أي وجه حتىٰ تستطيع تلك الجهات أن تدون في الإحصائيات "وقع في القطر هذا العام عدد كذا جنايات تم التصرف في عدد كذا منها ... إلخ (٢)

- الهوة بين بنود بعض الاستمارات التي وضع بنودها

النواب العموميون وتطبيقها علىٰ أرض الواقع، فيعلق علىٰ بنود الاستمارة الخاصة بقضايا التسمم : ...شيء جميل جدا! كل هذه الأسئلة ينبغي أن تطرح علىٰ مصاب لا يعرف رأسه من رجليه والأعجب من ذلك أن نطالبه بأن يخبرنا بأن الأعراض ابتدأت في الساعة كذا بالضبط. إذ لا ينبغي أن يُقال مثلا يوم "الإثنين" بل علىٰ هذا المصاب المسكين الغارق في متحصلات جوفه الشاعر بالدوار وفقد قوة الأطراف والتقلصات والنعاس... إلخ باعتراف الاستمارة... علىٰ هذا الرجل أو هذه المرأة الفلاحة الساذجة التي لا تحمل في جيبها ساعة وربما لم تر في حياتها الساعة أن تقول لنا إن الأعراض لوحظت أول ما لوحظت بالساعة والدقيقة.. بالضبط!!... إلىٰ آخر هذا الكلام المطبوع علىٰ استمارة وضعت فوق مكاتب العاصمة في صفاء وهدوء بال بعيدا عن مناظر القيء والإسهال! (٣)

(١) يوميات نائب في الأرياف، ص١٧.

(٢) السابق، ص١٤٧ .

(٣)يوميات نائب في الأرياف ، ص، ١٢٥.

والريفي رجل متأخر- في نظر الحكيم- يسفك دم رجل ضعيف انتقامًا لعرض أهين في نظر التقاليد والعادات مقارنا بين أسباب الجريمة في ريفنا وبين أسبابها عند الغرب «كشيكاغو» مثلا - ويرىٰ أن الثروة والمال هما ما يشغل بال الرجل في الغرب، وينتصر الحكيم للجريمة التي تنشأ عن سبب كبير بل ويقدرها "إن الشر هو دائمًا الشر ولكن الشر الناتج عن سبب كبير لأجدر بالتقدير من شر نشأ عن سبب تافه حقير.[١]

-هذا وإن كان النائب عرفنا بمهام وكيل النيابة، فقد سرد حقي مهام معاون الإدارة ، وهي مهام ينوء بحملها عشرة معاونين فما بالك بمعاون واحد." فهو يؤدي أولا كل خدمات وزارة الداخلية من تحقيق للجرائم والخروج للدوريات وانتخابات العمد والمشايخ..... وتحصيل الضرائب كلها والحجز علىٰ المتخلفين وبيع متعلقاتهم لوزارة المالية... وإعداد قوائم المجندين وحضور الفرز ..وضبط المتسحبين لوزارة الحربية ... والحضور عن الحكومة في القضايا المرفوعة منها ضد الأفراد وتنفيذ أحكام الطاعة لوزارة العدل ....." [٢]

- قضايا المجتمع تحليل ونقد

سلط كل من الحكيم وحقي الضوء علىٰ العديد من القضايا الوطنية والاجتماعية ، واختلف تناول الأديبين لهذه القضايا لاختلاف طبيعة كل منهما. وتبين من خلال البحث أن الحكيم كان أعلىٰ صوتا وأكثر جرأة في النقد من حقي خاصة في الجانب الإداري والقضائي، وأن حقي كان أكثر تناولا للجانب الاجتماعي منه.

(١) - السابق ، ص١٤٣، وينظر كذلك ص١٠٦.

(٢) - خليها علىٰ الله، ص، ١٤٠.

ولا يفوتنا أن نشير إلىٰ عامل النشأة والزمن ودورهما في معالجة الفكرة عند الكاتبين ، فحقي كتب مذكراته بعد ثلاثين عاما من عمله بالصعيد وهو الرجل الشعبي النشأة الوديع الودود، عكس الحكيم الذىٰ كتب يومياته وهو – في فورة شبابه– يمارس عمله في الأرياف ويتجرع مرارة المهنة ،وهو الشاب الأرستقراطي الذي عاش في بحبوحة من العيش ورغب عن مخالطة الناس إلا فيما تقتضيه طبيعة المهنة، كل هذا مع ما ورثه عن أمه من جرأة وصراحة .(١)

وإذا كان توفيق الحكيم ميالا بطبعه إلىٰ الرتابة وقلة النشاط والحركة : فقد أضاع عليه ذلك كثيرًا من الفرص والمتع في الحياة والفن.(٢) كما حال بينه وبين كثير من المشاهدات التي يعج بها الريف.

وإذا كان حقي رجلا شعبيا، خفيف الروح سريع الخطو عاشقا للتجوال، محبا للحركة، مولعا بالمشاهدة فقد أسهم ذلك علىٰ ارتسام العديد من المشاهد في مخيلته عن وطنه الكبير مصر وبيئة عمله الصغيرة «منفلوط» وظلت هذه المشاهد ماثلة في نفسه وإن بعُد عنها بشخصه إلىٰ أن كتب مذكراته «خليها علىٰ الله» بعد ثلاثين عامًا من تركه العمل ،بذهن حاضر متقد ومرآة مصقولة مجلوة. ومن أبرز ما تناوله الكاتبان من قضايا:

- الفقر

تناول كل من الحكيم وحقي قضية الفقر، وكيف أسهم الفقر في ازدياد معدل الجريمة، إذ يدفع بدوره إلى السرقة والنهب والنصب. ويستنتج الحكيم وحقي شدة فقر هذه الأرياف بعدة طرق منها :

(١) – سجن العمر ٥٣. .

(٢) – السابق، ص٢١٨، ٢١٩.

– دور وكفور هذه الأرياف فهي في تبعثرها كفورًا وعزبًا ." ...لكأنها هي نفسها قطعان من الماشية مرسلة في الغيطان. هذه القطعان من البيوت التي تعيش في بطونها ديدان من الفلاحين المساكين هي كل ما تقع العين عليه في هذه البقاع[١]. وانظر إلىٰ حقي في مقاليه " تنفيذ حكم الطاعة " وفراغة عين"(٢)

– نوع الجريمة التىٰ يرتكبها هؤلاء المساكين .: فمتهم بسرقة كوز ذرة ، وآخرون بسرقة كيس ملابس من الترعة.(٣) وعند حقي متهم بترك معزته ترعىٰ في أرض جاره، والعمدة نفسه متهم بأخذ دجاجة مسكينة من السكة وإطعامها المأمور.وكثير من النساء في الصعيد يرضين بالفجر وبيع النفس لشدة فقرهن ويتعرضن للكثير من الإهانات، ينظر نقطة المومسات ، ويوم الكشف، وبائعات الهوىٰ والسوق السوداء .

حقا إن هذه اليوميات صرخة من رجل القانون والعدالة في مصر ضد القانون المزعوم والعدالة المزيفة _ صرخة من الصميم"(٤)

كما استنتج حقي بحسه الدقيق وكثرة اندماجه بالفلاحين أن الفقر كان سببا في انتشار عدة أمراض خطيرة بالصعيد كالملاريا و البلهارسيا، ":. .. في منفلوط تلقيتُ لأول مرة في حياتي عن قرب ووجهًا لوجه ضحايا البلهارسيا والملاريا، فتية كثيرون في زهرة العمر اكتسىٰ وجههم بسبب هذين المرضين الخبيثين بصفرة الموت فانتفخت بطونهم بثقل طحال متضخم، أصبحوا مسخًا تحار كيف تصفهم،

(١) السابق، ص٥٢.

(٢) خليها علىٰ الله ، ص، ١٧٦:١٦٩. .

(٣) يوميات نائب في الأرياف، ص٥٧ ، ٥٨.

(٤) جريدة الوفد المصري ١٠ مارس ١٩٣٧م فوق سطح الحياة حدأتان تتناجيان، عباس حافظ ص ١، ٥..

أهم شباب أم شيوخ، في عيونهم نظرة مجهدة ومع ذلك تثب إليك كأنما تحاول التملص من يد تغتالها لتنطق بمعاني النفس وتنم بالراحة والمرح والمعابثة.(١)

وفي لوحة أدبية لمشهد يوم الفرز ينبه حقي علىٰ بعض الظواهر المرضية الخطيرة – أيضا- التي لو فطن لها ولاة الأمر وتدخلوا لعلاجها لكان لها أثر طيب علىٰ أبناء هذه الناحية ، منها مرضيْ الفتق والقراع وانتشارهما بين عموم الفلاحين المساكين في الصعيد. "... ويأتي فلاح آخر فيصرخ الطبيب فتاق.. غيره ...سعفة.. فتاق... فتاق، سعفة .

وكما عودنا حقي أنه لن يترك الأمر هملا، تجده يوقفنا علىٰ ما قرأ عن سيرة الدكتور/ البرت شفايتزر الذي كان يعيش في أدغال أفريقيا والحائز علىٰ جائزة نوبل فعلمتُ أن الفتق كان منتشرًا بين أقوامها البدائية"(٢)

وحقي يسوق هذه اللوحات الواقعية بهدف الإصلاح والتنبيه علىٰ هذه الظواهر الخطيرة – في هذه الناحية – لعله يجد من يسمع.

والفقر تتجرع غصصه الصغار قبل الكبار".. فلا أعرف إنسانًا أدعىٰ للعطف والرثاء وأحوج للرعاية والعناية من صبي بريء إما يتيم أو لطيم... تطحنه رحىٰ الحياة.. ولا يجد ملاذًا ولا يشعر إلا ويد الإجرام تمد إليه فيدربه أستاذ علىٰ الإجرام بقسوة تهصر جسده وروحه.(٣)

وحقي صادق المواساة سريع التأثر لمرأىٰ هؤلاء الصبية فيخفق قلبه فرحًا لرؤيتهم : ...ما أشد فرحة الصبي في قلبي حين تأتي موسيقىٰ حسب الله لا تهمني

(١) – خليها علىٰ الله ،ص٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) – السابق ، ص، ٢٥٤.

(٣) السابق، ص٥٤ بتصرف.

ثيابهم المهلهلة، وأحذيتهم المخروقة، ولحاهم النابتة ولا هزال بطونهم الخاوية هذه الفرحة تخالطها عاطفة لا أتبينها ولكنها تجعل نفسي تغيم..."..[١]

وعن زيارته الإصلاحية يقول": .... لم أكد أجلس في الترولي حتىٰ لاحقني صوت لا تحتمله نفسي، وكدت أقفز هاربًا.. الصبية يلهثون ورائي وعلىٰ جانبي كأنهم كلاب عطشىٰ مدلدلة الألسن.[٢]

ويأخذنا حقي إلىٰ داخل البيوت في الصعيد بما يكشف عن فقر مدقع : "..... إني أخجل إذا حلّ موعد الغداء وكنت بين الفلاحين أن آكل وحدي ودونهم ما حملته يداي، وهل أنا أعمىٰ؟ يكفي أن ألقىٰ نظرة إلىٰ الدار، ليس فيها شيء يمت إلىٰ كلمة "الأثاث بصلة سوىٰ عدد من كراسي القش مهشمة بالية... من بيوت الفلاحين التي دخلتها كثرة ليس فيها إلا الأرض والجدران وفرن سماوي تنضج علىٰ بلاطه أرغفة من دقيق الشعير زرق مكببة، هي كل طعامهم... مع المشّ والبصل لا شيء غير هذا اللهم إذا عددتُ بوص الأذرة الذي يغطي أرض القاعة نوعًا من السجاد.[٣] وكان هذا عاملًا لانتشار أمراض خطيرة بين هؤلاء المساكين – كما بين البحث .

حتىٰ عُمَد هذ الأرياف فلهم ذنوب من الفقر أيضا، فتجد الحكيم يرثي لحال بعضهم: ...إن العمدة كالجرادة يتخذ شكل الأرض التي يولد فيها ، فالأرض الخضراء تخرج الجراد الأخضر ، والأرض القحلاء تخرج الجراد الأغبر. وهذا العمدة الأغبر لا شك من بلاد قاصية فقيرة علىٰ حدود المراكز قريبة من

(١)خليها علىٰ الله ، ص٥٥.

(٢) السابق، ص، ٥٨.

(٣) السابق. ص١٧٦.

الصحاري.[١] وهذا حقي يقسمهم طوائف : الأولىٰ عمدة من أسرة لها عزوة وملك ، الوظيفة ليست إلا تأكيدا وتثبيتا للمقام ، عليه سمة الأعيان لا سمة الموظفين. والثانية عمدة من عائلة طيبة ليس لها عزوة كبيرة أو ملك وفير ، عليه سمة الموظفين لا الأعيان .والثالثة :عمدة في قرية كل أهلها فقراء علىٰ باب **الله** ، يقترض العمدة من أقاربه وأقارب أقاربه إقرارات كاذبة بأنه يملك النصاب القانوني من الأرض، ليس عليه لا سمة الموظفين ولا سمة الأعيان ، بل سمة الأجراء المسترزقين ، المركز يركبه وأهل البلد يركبونه، ونفوذ شيخ الخفر يفوق نفوذه وبدلا من أن نستنجد به فإنه هو الذي يستنجد بنا ...". [٢]

– عرّفنا حقي ببعض الكفور والنجوع بالصعيد، ليؤكد حرمان هذه الأماكن من أبسط مقومات الحياة ،كما جاء في مقاله "كفر الشيخ مبارك" [٣]. وفراغة عين"

– أمدنا حقي بالكثير عن " نقطة المومسات " في بعض مراكز الصعيد كنقطة مومسات منفلوط وأسيوط وبهجور، : لا تروىٰ عن نقطة مومسات منفلوط مغامرات التبذير في الهوىٰ أو المال أو المخدرات لم تكن وكرا للمجرمين والفتوات. حدثنا عن معلمتهن، ويوم الكشف عليهن وطبيعته ومآخذه علىٰ عملية الكشف، وكيف أنها تجرىٰ بصورة روتينية فلا يتم الكشف عليهن حقيقة، فالأمر ما هو إلا بطاقة لكل واحدة من هؤلاء المومسات تقدم لطبيب المركز ثم يقوم بالتوقيع عليها بخلوهن جميعا من الأمراض التناسلية.

---

(١) يوميات نائب في الأرياف، ص١١٧.

(٢) خليها علىٰ الله ص ٢٢٣

(٣) هو كفر صغير يقع على جسر الإبراهيمية بحري بمنفلوط، بمحافظة أسيوط، يقع الكفر في حضن هذا الجسر، بين الحقول وسطحه بارتفاع مترين، منازل صغيرة يكاد لا يصل سطحها إلىٰ مستوىٰ الجسر. خليها علىٰ الله ص ٢٤٨،٢٤٩.

ولا يفوت حقي أن يسرد لنا ما يتعرض له هؤلاء المومسات من إهانات في كثير من المواقف للحد الذي تعجز فيه المرأة عن مجرد طلب النجدة.(١)

وليس الفقر موقوفا علىٰ صعيد مصر. فقد حدثنا حقي عن كثير من مراكز مصر التي نزل أو عمل بها، وكيف أنها تعيش عيشة بائسة فقيرة "دمنهور نفسها محرومة من المجاري" وأبو حمص من أفقر البلاد في المساكن ولما سألت عن السبب علمت أن أرضها حكر يستغله مالك يهودي لا يأبه بالبناء ويحاربه..(٢)

"كنت أجوس من خلال الريف وأنا كالمخدر لا أفهم سبب علته ولا أحس في قلبي إلا يأسًا مريرًا واستسلامًا صاغرًا"

ويلقي حقي الضوء على أسباب الفقر في الصعيد وغيره _خاصة لدى الفلاح المصري – وبين أن على رأس هذه الأسباب :-

– ما قامت به المحاكم المختلطة من نزع ملكية أراضي كثير من الفلاحين وبيعها في المزاد العلني بالقاهرة لصالح الأثرياء وأصحاب النفوذ من الأجانب وغيرهم. ويصور مشهد نزع ملكية أحد الفلاحين البسطاء وكيف أن الرجل وقف مشدوهًا مبهوتا يكاد لا يصدق ما يحدث. "... وقف الفلاح وحده يقلب ورقة نزع الملكية بين يديه كأنما عثر علىٰ حيوان عجيب يتلوىٰ في خشخشة الورق أنين خوفه.. "وهذا المنظر يكفي وحده للدلالة علىٰ الدور الخطير الذي لعبته هذه المحاكم في هدم الاقتصاد القومي وسلبه وتثبيته في يد الأجانب والانجليز خاصة وتدخلهم السافر في شؤون مصر وسلب خيراتها (٣)

(١) – خليها علىٰ الله ص٢٣٥.

(٢) – السابق، ص٧٦،٧٧.

(٣) – السابق ، ص٣٦.

- حفر قناة السويس وما تكبدت مصر- خلاله - من خسائر باهظة في النفس والمال ،فبين في مقاله "الأصفار خلصت" حجم الخسائر في عهد إسماعيل ،ينقل ذلك علىٰ لسان رئيس تحرير صحيفة الحزب الوطني بعد أن تدهور حالها : ... وانظر إلىٰ حماقة إسماعيل يقبل التحكيم بينه وبين دليسيبس الفرنسي، فلا يجد في أرجاء الأرض كلها إلا فرنسيا يحتكم إليه هو الإمبراطور نابليون الثالث بدعوىٰ أنه صديقه، ودفعت مصر بسبب هذه الحماقة ٢٠٠،٠٠٠،٠٠٠ فرنك[١]

الجهل

سرد حقي الكثير من اللوحات الأدبية الحية التي تبرز تفشي الجهل بين عموم الفلاحين في الصعيد، ذلك الجهل الذي أثر بدوره في تفكير الفلاح وسلوكه، وحكمه علىٰ الأشياء، وتصديقه لما يلقىٰ علىٰ مسامعه من أكاذيب المحتالين.

وجهل الفلاح في صعيد مصر- وغيرها - أدىٰ به إلىٰ عدم تقديره العلم ، فيبين كيف كان وضع الطبيب البيطري هناك وأنه لولا راتبه من الحكومة لمات جوعا، فلا يرد عليه أحد من الفلاحين لعلاج حيوانه أو طيره ، إذ لا يزال يؤمن بالوصفات البلدية رغم وقوفه علىٰ قلة جدواها ،فهذا: فلاح مرضت جاموسته، وساءت حالتها يومًا بعد يوم وهو جالس يرقبها ...ترقد أمامه في النزع الأخير... بين عينيها وفي يد الرجل سكين كبير كلاهما ينظر إليه، هذه كأنما ترجوه أن يحزم أمره ويرحمها من عذابها.[٢]، لم يرد علىٰ خاطره عرضها علىٰ طبيب المركز رغم أن الكشف والأدوية تكاد تكون بالمجان: ...

وهذا آخر يهبط عليه رجل من النصابين المحتالين - ذات يوم - يوهمه أن كنزا مدفون في صحن داره وعليه أن يحفر ويعمق الحفر كي يستخرجه، وأخذ الفلاح في

(١) - خليها علىٰ الله ص٦٤.

(٢) - السابق ، ص ١٢٦.

الحفر حتىٰ استاء جاره من شدة الهَبْد كل ليلة، وشكاه للمركز أكثر من مرة، واختفىٰ هذا المحتال بعد أن سلب من الفلاح كل ماله حتىٰ مصاغ زوجته، ولم يتمكن المركز من الاهتداء إليه لأنه غريب عن الناحية[١].

وثالث : أصيبت ابنته "بالصرع" وجاءوا لها براق ادعىٰ أنها ملبوسة بجني وأوهمهم بأن بإمكانه استخراجه ، وطلب أن يتركوهما معها لبعض الوقت فما كان منه إلا أن اعتدىٰ عليها ...!

ولحقي الكثير من هذه الصور سردها أملًا في توعية أبناء جيله بحيل هؤلاء النصابين المجرمين الذين يستغلون جهل الناس وسذاجتهم وقلة خبرتهم وعدم تجربتهم.

- قضايا القتل والأخذ بالثأر

بين النائب أن جل قضايا القتل لا يتوصل فيها إلىٰ الفاعل **" إن هذا المجني عليه- يقصد قمر الدولة علوان - قد مات وانتهى مثل غيره من مئات المجني عليهم في هذا المركز والمراكز الأخرى في القطر ،ذهب دمهم جميعا أرخص من المداد الذي حبرت به محاضر قضاياهم، وانتهى ذكرهم عندنا "رسميا " بذلك الإجراء البسيط " تحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل ويكتب للمركز باستمرار البحث والتحري فيجيب المركز بعبارة مألوفة محفوظة ... "جارين البحث والتحري..." وهي كلمة الوداع التي تقبر بها القضية نهائيا** "[٢].

وقد اقترح النائب- كما اقترح حقي- بعض الحلول التي قد تحد من معدل الجريمة وتسهم في معرفة الفاعل . فالنائب يتمنىٰ لو كان لدينا بوليسا سريا علىٰ النظام الحديث وقاضي تحقيق ينقطع لقضايا الجنايات كما هو الحال في أوربا والعالم المتحضر، وحقي في بيانه لطرق وقوع الجريمة، بين كيف بإمكان الحكومة

(١) – خليها علىٰ الله ص ١٥١

(٢) – يوميات نائب في الأرياف ، ص ١٤٦ .

الحيلولة دون وقوع الكثير منها ،فبعد أن بين هذه الطرق التي منها "السوق الحرة" ويعني بها الأهالي: يتربص القاتل بالمقتول حتىٰ إذا سنحت له الفرصة قتله ، ومنها "السوق الرسمي" ويعني به الحكومة التي يأخذ عليها عنايتها بالأمور الثانوية والتفاصيل والتطويل في التحقيق. تحقيق البوليس ثم تحقيق النيابة ثم بعده بعمر طويل أمام المحكمة...". (١) قال "... قد تختفي جرائم الأخذ بالثأر لو أخذت الحكومة نفسها بثأر الفلاح حسب منطقه وهذا محال!".

يلاحظ على النائب " الحكيم " – خاصة عند تناوله قضايا القتل أنه قد أصيب بشيء من عدم الاكتراث، ومرد ذلك عجزه عن إقامة العدل ،والضرب علىٰ يد القاتل حتي يكون عبرة لغيره. فكم نفث الزفرات أسا وأسفا. يقول وقد وضع أمامه ملفات قرأ علىٰ غلاف أحدها : قضية قمر الدولة علوان " ... فتذكرت أن الفاعل في هذه القضية لم يعرف ..لم يعرف، طبعا لم يعرف ولن يعرف . وكيف يراد منا أن نعرف متهما في قضية غامضة كهذه وكل من المأمور والبوليس " ملبوخ" من رأسه إلىٰ قدمه في تزييف الانتخابات، وأنا ملبوخ في قراءة شكاوىٰ وجنح ومخالفات وحضور جلسات..."(٢)

– وفي تناول حقي قضية الأخذ بالثأر بين كيف أن الدم يراق في الأرياف– خاصة في الصعيد– لأتفه الأسباب، فتوقده شرارة، وإذا غلىٰ دم الصعيدي وفارت فائرته فإنها لا تهدأ إلا بالانتقام وأيسر طرقه القتل: ترىٰ القاتل يصرف عمره في تتبع ضحيته ككلب الصيد وهي تفر أمامه من بلد إلىٰ بلد، والقتيل يراق دمه وقد يلغ فيه القاتل تكفيرًا عن اعتداء وقع قبل مولده.(٣)

(١) خليها علىٰ الله. ص٢٢٠.

(٢) – يوميات نائب في الأرياف، ص١٤٦ .

(٣) – خليها علىٰ الله ، ص١٢٨.

ويسرد حقي العديد من حوادث القتل في الصعيد وغيره، مبيّنا أسبابها، وكيف تقف الحكومة مكتوفة الأيدي للحيلولة دون وقوعها، وكيف يتربص الجاني بالمجني عليه مدة من الزمن قد تطول أو تقصر حتىٰ إذا وجد فرصة اهتبلها غير آبه بثأر أو سجن ، وهذا نقطة اتفاق بين الكاتبين .

فهذا فلاح بسيط قتل إثر مطالبته بحقه المعتدىٰ عليه من جاره في الأرض، إذ حدث خلاف بينهما علىٰ الحدود ،فهدده الجاني بالقتل إن لم يعرض عن هذا الأمر، فما كان من هذا المسكين إلا أن بلّغ المركز بهذا التهديد .. ولكن هيهات فقد بيّت هذا الظالم النية وأخذ يتربص بالمجني عليه الدوائر،ويراقبه جيئة وذهابا حتىٰ تحقق له مطلبه.(١)

وأشار حقي إلىٰ نوع من القتل معروف في الصعيد وهو القتل من أجل الكرامة، فقد يقتل الأب ابنته أو الأخ أخته حفاظًا علىٰ الكرامة والشرف ،ويسرد قصة مقتل فتاة نال خطيبها من شرفها قبل الدخول، فلم يكن لهذا الأب مفر من قتل ابنته: إن الذي وضع السكين في يده هو ضغط الرأي العام الذي يجعل الشرف قاصرًا علىٰ سلامة العرض.. لو لم يقتلها لما استطاع أن يعيش في قريته فلأهلها انتباه شديد بسيرة نسائها.(٢)

– تعرض الكاتبان لعملية تشريح الجثة والتي كانت تتم –غالبا–في بيت المقتول رجلًا كان أو امرأة – علىٰ مرأىٰ ومسمع من أهله وغير أهله، وصورا أكثر من عملية تمت بهذه الطريقة وأبديا استياءهما لهذا المشهد :... وأعمل الطبيب، المشرط حالا في رأس القتيل وهو يملي علىٰ الكاتب : ونزعنا الفرو (يقصد فروة الرأس)، وعندئذ علا صياح النسوة، وكن قد تسللن وتسلقن سطح الدار والأسطح

(١) – خليها علىٰ الله ص١٢٨ .

(٢) – السابق ، ٢١٧ .

المجاورة " المعرشة " بحطب القطن والذرة ، وسمعت بين أصواتهن المختلطة صوتا رفيعا حارا مؤثرا أوجع قلبي يصيح:

– يا شجرة ومضللانا يا بويا!، وتلاه صوت آخر في مثل رفعه ولهيبه وقد امتزج بنشيج وبكاء مرّ:

– يا اللي كنت خارج وسحورك في بطنك يابه. (١) كما أثارت هذه العملية حفيظة حقي ، فيسرد عملية تشريح جثة فتاة حملت سفاحًا :... أخرج الحلاق المشرط وبقر بطنها وتناول من بين القدمين جنينًا كامل النمو ورفعه في الهواء كأنه يريد أن يريه للجميع ثم يقول معلقًا "... كان يستطيع هذا الطبيب أن يشرّح الجثة داخل النقطة أو في جوارها إن أراد مجاملة الضابط أو ينقلها للمركز.. ولكنه لم يبال أن يمزقها أشلاء أمام أعين أهلها وجيرانها في منزلها علىٰ دكتهم الوحيدة..(٢)

- المرأة

نالت المرأة حظًا وافرا من التناول عند الكاتبين ،وقد تميزت عند الحكيم بالتفاعل والإيجابية ، تتشاجر وتذهب الىٰ المحاكم جانية ومجنيا عليها وشاهدة وشاكية ،تشارك جارتها مآسيها وهمومها، تكيد لها وتغيظها ، تبادلها الردح والسباب. فينقل الحكيم طرفا من الشجار الذي دار بين زوجة المأمور وزوجة القاضي : ...طلعوا لبعض فوق الأسطح ونزلوا في بعض " ردح من النوع النضيف "، ... امرأة المأمور إغاظة في صاحبتها راحت لبست سترة زوجها الرسمية "بالتاج و الضبورة "، وغطت رأسها من غير مؤاخذة بالطرحة أم "ترتر" وقالت لها بالصوت العالي: .. أنتم حواليكم إلا قلة القيمة لا يمشىٰ وراكم إلا حاجب "روبابيكيا"... نصف عمر صابغ شعره، لكن المركز كله بالخفر والعسكر

(١) – يوميات نائب في الأرياف ص ١٢٩،: ١٣٢.

(٢) – خليها علىٰ الله ، ص١٨٦.

تحت أمرنا يضرب لنا سلام". قامت امرأة القاضي نزلت ولبست لها الوسام الأحمر عهدة الحكومة فوق الفستان البمبي...وطلعت تقول لها: " قطع لسانك وليّة سفيهة ! أنتم صحيح مالكم إمارة إلا علىٰ غفيرين مغفلين ، لكن من في البلد كلها يقدر يحبس ويشنق ويقول حكمت المحكمة غيرنا؟ "[١].

والمرأة في الصعيد عند الحكيم ،شبح لا يري ولا ينبغي أن يرىٰ.، وهي مخلوق جاف لا فرق بينها هناك وبين الرجل. وكلاهما في الجسم والطبع والروح كتلك الأرض السوداء التي يعيشان عليها وقد جف عنها النيل في زمن التحاريق، آدميون قد جف عن تركيبهم ذلك الماء الذي فيه سر امتياز الآدميين.[٢].

أما حقي فقد تناولها تناولا يكشف عن طبيعتها كأنثىٰ ،وأنها مخلوق ضعيف تدفعه الغريزة ،مستعينا في ذلك بمشاهداته الكثيرة في الريف وغيره. فبين وضع المرأة في الصعيد، وأنها حبيسة دارها: "فيهن من تفخر بأنها لم ترتد الملس إلا مرة واحدة يوم أن خرجت زفتها من بيت أبيها إلىٰ بيت زوجها وكأنما ودت لو دفنت به لتلبسه مرة أخرىٰ وهو قشيب"[٣].

كما تناول مكانتها في الصعيد -كأم- وكيف كانت تُجلّ وتحترم، كلماتها ماضية -علىٰ أبنائها- مضاء السيف.[٤]

وحقي يركز _في تناوله للمرأة في الصعيد "علىٰ الجانب التراجيدي المأسوي" فهي امرأة ممتهنة، قد أنهكتها الخدمة "وجدت أغلب الفلاحات ما تكاد الواحدة تتزوج وتخلف ولدا أو اثنين حتىٰ تتساوىٰ في المظهر مع أمها، قددتهما لسعة

(١) - يوميات نائب في الأرياف، ص ٦٣.

(٢) - السابق ، ص١٤١.

(٣) - خليها علىٰ الله، ١٢٨.

(٤) - نفس المرجع ، ٢٤٦

الشمس ووقد الفرن، وامتهنهما وعطرهما بشذىٰ واحد عجين الحِلة وتقريصها ودمغهما بميسم واحدٍ، بذل جهد مماثل في عمل شاق متصل رتيب هي أكثر أهلنا قفزًا من الصبا إلىٰ الشيخوخة"[١].

صورها ساذجة عديمة الخبرة تلقي سمعها للمشعوذين والسحرة وتنبهر بالدراويش، يأخذ الدرويش طفلها أمامها إلىٰ الحلبة ، يمسح علىٰ رأسه ويبشرها بولايته فيقتله بغبائه.[٢]

صورها رقيقة المشاعر، تنساق وراء عاطفتها، فلا تتثبت من خبر ولا تبحث عن دليل. صورها قليلة الحيلة يعتدىٰ عليها – أحيانا- ولا تستطيع حتىٰ طلب النجدة.[٣]

ويسرد حقي الكثير من المشاهد. التىٰ تدل علىٰ سذاجتها وقلة خبرتها . :.... فهذه امرأة موسرة كبيرة السن في منفلوط خرج وحيدها منذ عشرين عامًا ولم يُعلم مكانه، طرق بابها بعد هذه المدة الطويلة شاب ملثم، ادعىٰ أنه ولدها، وبسذاجتها وغريزتها الجامحة صدقته لأول وهلة وأخذته بالأحضان، وأقامت لعودته الولائم، وبعد أيام اكتشفت بأنه نصاب محتال دخل المنزل لسرقة حُليها إذ اهتبل فرصة وتسلل إلىٰ صندوق ملابسها فأخذ مصاغها وفرّ مسرعًا نحو الباب فارتابت في أمره وتأكد لها فعلته الدنيئة.....فهرولت وراءه صارخة وتحلق عليه الجيران وأبلغوا عنه المركز، وبعد التحقيق وطلب صحيفته الجنائية تبين :"أنها ذات سوابق طويلة مهيبة... ويركز حقي علىٰ وصف المشهد علىٰ غريزة الأمومة الجامحة : "سحبه العسكري من تلابيبه... وفهمت الأم أنها مطالبة بالانصراف أيضًا ولكنها تجمدت

(١) – خليها علىٰ الله ، ص٢٠٥.

(٢) –نفس المرجع، ص١٧٢.

(٣) –نفس المرجع ، ص ٢٣٥،

أمامي تدير رأسها تلاحق ظهر من غشها وسرقها بنظرة غائمة، لو عاد ابنها لكان في مثل عمره وسمعتها تتمتم : روح الله يسامحك. "[١]

: وهكذا في جميع قضايا النصب أثور حينما أجد الناس لا ينتبهون، وهذا شيء مخيف إذ يكاد ينطق بأن الأمانة في هذه الدنيا والعنقاء سواء.[٢]

ويأخذنا حقي إلىٰ بحري لينقل بعض المشاهد التي تؤكد أنه مع ما عرف عن ضعف المرأة فإنها لا تعدم الأسلحة التي تصيد بها ،:.. فتأتي المحكمة علىٰ تمام شياكتها وفي أبهىٰ زينتها _إنه يوم عظيم ينبغي فيه التأثير علىٰ القاضي ... ولأنهن ستقابلن أزواجهن وجهًا لوجه وتبقىٰ العين في العين مدفوعات بشهوة التشفي أو الأمل في الصلح[٣]

كما تحدث عن نساء البلد ورقتهن وغريزتهن... تراهن سريعًا ما يتجاوبن مع مشهد مأساوي كرؤية صبية الإصلاحية فيذرفن الدموع ويمصمصن الشفاه ،يحزنهن ويزيدهن أسىٰ ولوعة رؤية صبي غارقً في حضن "نفير" كأنه مخلوق عجيب يلتف حول عنقه.. تود كل واحدة لو أنها تناولت الصبي منهم فربتت علىٰ ظهره وقبلته في جبينه وأخذته في حضنها ثم أطلقته وفي يده نبوت الغفير أو خد الجميل.[٤]

وبعد . فالمرأة في الصعيد عند الكاتبين حبيسة دارها لا تبرحه إلا نادرا، ومن ثم فهي في وجه بحري أكثر جرأة وأكثر وعيًا ، ولعل ما أتيح للمرأة في بحري من الخروج والانخراط في المجتمع الذي حرمت منه في الصعيد أكسبها خبرة وتجربة.

---

(١) – خليها علىٰ الله، ص١٥٥.

(٢) – السابق، ص ٧٩.

(٣) – السابق، ص٦٨.

(٤) – السابق، ص٥٦

وهي عند الحكيم ، أكثر تفاعلا وتجاوبا منها عند حقي فلها تأثير واضح في سير الأحداث ، يتضح ذلك بجلاء في شخصية "ريم ".

- المحسوبية أو "الواسطة"

أشار كل من الحكيم و حقي إلىٰ داء اجتماعي خطير يسلب صاحب الحق حقه ألا وهو "المحسوبية" أو الوساطة وكيف أن هذا الداء يولد لدىٰ صاحب الحق المهضوم ،الكثير من أمراض النفس كالكبت والتمرد بل والحسد أحيانا . فينقل النائب حوارا دار بينه وبين زميل له عن حركة التنقلات هذا العام ،وعن أمله في أن ينقل إلىٰ القاهرة

– حركة التنقلات في نوفمبر– أظن أن عليّ الدور أنتقل لمصر .

– زميله : النقل لمصر مش بالدور يا حبيبي عندك واسطة؟

– لا

– حاتعيش وتموت في الأرياف.(١)

كما أشار حقي إلىٰ هذا الداء العضال، وكيف أن كثيرًا من زملائه نالوا من الوظائف مبتغاهم عن هذا الطريق : ... فيهم من يشق الماء بذراع قوي، وفيهم من يتمنطق بقرّاعة استامبولي مكتوب عليها "المحسوبية" أو "الوساطة" وفوزهم لا يخلو مع ذلك من عامل خفي مجهول اسمه "الحظ".(٢)

– كما وصف حقي سير الأمور في الشارع المصري إبان الاحتلال، وكيف أن بعض المصريين أساءوا إلىٰ مصر قبل أن يسيئوا إلىٰ أنفسهم، فلم تنسه الأيام مسلك البعض ممن أصمهم حب الشهرة وأعماهم، وألجأهم إلىٰ السير في ركاب الأجنبي حتىٰ لو حاف ذلك علىٰ دينه وكرامته. رجل من الصعيد محافظ علىٰ صلاة

(١) – نائب في الأرياف ، ص١٤٣

(٢) – خليها علىٰ الله ، ص٤٧ .

الفجر في المسجد وعلىٰ أوراده، بلغ الأربعين من عمره، من أسرة يهمها إبقاء نفوذها. .. أخبره أصدقاؤه أن المستر فلان مفتش الداخلية سيزور البلد ولن يرتحل عنها إلا بعد زيارته في بيته لتحيته تكريمًا له وإعلاءً لشأنه عند الحكام، فهش لذلك الرجل ،وخف لإعداد مأدبة حافلة له ، ولبّىٰ رغبة ناصحه بأن تضم المأدبة خمرا- علىٰ عادة القوم... وجاء اليوم "فقدم الطعام ومعه ما يناسبه من الخمر ورأىٰ الرجل أن من اللياقة أن يشرب مع ضيفه.. فبادله كأسا بكأس ويبدو أن الخمر وقعت من نفس صاحبنا موقعها فظل مخلصا لها ، فأنسته المسجد ومن ثم أوراده وصلواته.

ويستطرد حقي ليبين النهاية الأليمة لهذا الرجل، فيوم حضرته الوفاة تراه – وهو مسجىً علىٰ فراشه.-. يرفع سبابته بجهد نحو زوجته وقد زاغت منه العينان وامتنع عليه الكلام_ ظنت أنه يريد ماء فجاءته بكوب ماء فأشاحها عنه وأشار ثانية ففهمت مراده فأحضرت له كأس الكونياك "الذي اعتاد أن يكون آخر شيء يشربه قبل النوم. وكان حقًا آخر شيء شربه في حياته قبل أن يقابل ربًا ظل يتعبده من قبل أربعين عامًا.[1]

ويسوق حقي هذه القصة ليبين إلىٰ أي حدٍ وصل بالمصري الهوس بالأجنبي، وهو أغلىٰ وأعلىٰ منه شأنا، _لو فطن_ وليوضح أن لنا إلها من يتعدىٰ حدوده خاب وخسر.

والعجيب أن هذه العدوىٰ قد تسرب خطرها إلىٰ طلبة الحقوق أنفسهم . إذ كانت هذه المدرسة قسمين: قسم انجليزي وقسم فرنسي _أغلب الطلبة يميلون

(١) – خليها علىٰ الله ، ص٢٤٤ .ينظر كذلك مقال بيت البشمهندس ووصف حقي للبيت والمهندس وفعل الخمر به.

إلىٰ الدخول في القسم الإنجليزي_ رغم أنه ثقيل الدم عليهم، يأملون بذلك استجلاب رضا النائب العام ،وكان انجليزيا _من أجل إلحاقهم بوظائف النيابة.(١)

وللحكومة ذنوب من نقد النائب وحقي ، فالنائب يأخذ عليها بعثرتها للأموال وعدم وضعها في مكانها الصحيح " .... فالأموال تنفق في مصر بسخاء في التافه من الأمور أما إذا طلبت لإقامة العدل أو تحسين حال الشعب فإنها تصبح عزيزة شحيحة تقبض عليها الأكف المرتجفة كأنها ستلقي في البحر هباء، ذلك أن العدل والشعب كلمات ... كل مهمتها أن تكتب علىٰ الورق وتلقىٰ في الخطب كغيرها من الألفاظ والصفات المعنوية التي لا يحس لها وجود حقيقي (٢).

و نجد نفس النقد عند حقي : " إن أبشع سفه يستحق الحجر لا يعد شيئًا مذكورا إلىٰ جانب سفه حكومة ذلك العهد في بعثرتها لأموال مصر، في وقت هي في أشد الحاجة لمليم واحد لبناء صرحها الاقتصادي ولم تتعظ إذ استبقت لوائح التوظف الموضوعة لصالح الأجانب، كان يسمح للموظف الأجنبي بإجازة لمدة ثلاثة أشهر ونصف إذا قضاها خارج القطر.، وظل هذا النص يطبق علىٰ الموظفين المصريين، وعشت زمنًا طويلًا أعجب كيف يتاح للموظف الغني القادر علىٰ السفر إلىٰ الخارج مثل هذه الإجازة السخيفة ويحاسب الفقراء باليوم والساعة"(٣)

وقد يتخذ حقي من السخرية أداة للنقد . : "ركبت لأول مرة قطار الدلتا، ولم يكن صورة مصغرة للقطار، بل صورة مكبرة للعب الأطفال، شاهدت انبثاث

(١) – خليها علىٰ الله، ص٢٩.

(٢) – يوميات نائب في الأرياف ص١٤٦ .

(٣) – خليها علىٰ الله، ، ص٦٣.

الأروام[١] بين الفلاحين، فهم تجار القطن يركبون معنا هذه القطارات فلا نجد لذلك عجبًا.

- القمار والخمر

تناول توفيق الحكيم آفة لعب القمار بالنقد فبين خطرها، وإسهامها في إزياد معدل الفقر والجريمة ونبه علىٰ خطرها علىٰ الفرد والجماعة، من خلال ما ساقه علىٰ لسان بعض أصدقاء المأمور ممن يرتادون النادي وكيف اعتاد هذا المأمور في أوائل كل شهر أن يربح مرتبات الموظفين ثم يظل طوال الشهر يقرضهم ما يعينهم علىٰ أمر المعيشة إلىٰ آخر الشهر فيلاعبهم من جديد ويأخذ مرتباتهم الجديدة ويقرضهم ما يعيشون به طول الشهر وهكذا دواليك.

كما أشار إلىٰ انتشار هذه الآفة في كثير من المراكز ،فأحيانا يخف المأمور إلىٰ نادي هذه المراكز لملاعبة روادها، وتارة يستقبل ناديهم منتخبا قادمًا من بلاد أخرىٰ.[٢]

والحكيم يسَوق مثل هذه المشاهد لأخذ العبرة والعظة ، إذ غالبًا ما يخسر الشخص نقوده أو راتبه، فتعاني الأسرة الفقر والعوز إلىٰ آخر الشهر ، وهكذا دواليك، أضف الىٰ ذلك ما يوقعه الشيطان من العداوة والبغضاء بين الناس من هذا السبيل.[٣]

(١) – استعمل المؤرخون العرب في العصر المملوكي كلمة الأروام بمعنىٰ العثمانيين، أما كلمة أتراك، فيعنون بها المماليك الشراكسة. . ينظر المماليك الشراكسة، شفيق توفيق إسماعيل، ص٦٧، دار رسلان للطباعة والنشر، دمشق_ سوريا ٢٠٠٩م.

(٢) – يوميات نائب في الأرياف، ٦١، ٦٢.

(٣) – دليل المسلم الجديد، فهد بن سالم باهمام، ص١٤٤،نشر: شركة الدليل المعاصر، السادسة: ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.

وفي حوار مع مساعده الجديد بين أن علىٰ عضو النيابة أن يكون بمنأىٰ عن ارتياد الأماكن التي يشرب فيها الخمر ويلعب فيها القمار : " ...إذا كان يريد أن يبجله الجميع" وأخذ يبرهن له علىٰ صحة رأيه بقص ما حدث معه ذات يوم حين دعاه رجال الإدارة إلىٰ حفلة عشاء في النادي مع القاضي المقيم تكريما لزميله المنقول: .... ولم ينتبه القاضي لنفسه فعب منها حتىٰ ، أخذ يثرثر ويضحك حيث لا موضع للكلام والضحك وعندئذ مال علي المأمور وقد سكر هو أيضا و ألقىٰ في أذني " البك القاضي فقد وقاره! "فلم أرد أن أسمع أكثر من ذلك فانسللت منصرفا إلىٰ بيتي في هدوء دون أن يشعر بي هؤلاء المتخبطون في كؤوسهم . منذ ذلك اليوم وأنا لا أضع قدمًا في هذا النادي.(١)

كما تعرض حقي لآفة "شرب الخمر" في أكثر من موضع ". فتراه يصف في مقاله " بيت الباشمهندس" المهندس وبيته وصفا حيا يمتلئ بمشاعر الأسىٰ والألم علىٰ هذا الشاب الذىٰ اكتهل وهو شباب بفعل الخمر "، ليلقىٰ الضوء علىٰ فعل الخمر بشاربها ومن لم تنفعه النصيحة القولية فليتمل الصورة القلمية وليرجع فيها البصر ." ... إنني لا أستطيع تخمين عمره ويورثني هذا العجز شيئا من الحزن والأسىٰ ، .كأنني أشهد غصنا رطيبا لا يزال أمامه في الحياة فسحة كبيرة يورق فيها ويزهر تقصفه في عز الشباب يد غادرة" . كنت ألحظه وهو يسير أمامي علىٰ حافة الطريق منزويا ، رأسه اندفست في جسده فلمس شعر قفاه ياقة الجاكتة أو البلطو، له مشية راقصة تديره قليلا إلىٰ اليمين ثم قليلا إلىٰ اليسار ترىٰ أثرها في تآكل كعبي حذائه من جنب ، وحين أرقبه يسير هكذا وأجد يديه مضمومتين يحركهما إلىٰ الأمام والخلف، لا أدري لماذا يخيل إليّ أنه يكلم نفسه، أحس حينئذ أنه شيخ

(١) – يوميات نائب في الأرياف، ص٥٣،٥٢.

متعب أثقلته السنون والهموم .[١] ويظل حقي في رسم صورة حسية دقيقة لهذا الشاب وبيته الذي " أصبح بعد قليل من سكناه... من المسارح الحرة للفئران والعناكب والهوام والغبار، زجاجات الخمر مبعثرة علىٰ طول المدق المؤدي من الباب إلىٰ الفراش، أوراق الصحف تطيركما تشاء وتستقر حيث تشاء ،القمامة بين متناثرة ومكدسة طال عليها الأمد،.. لما عرفته تنبهت أن أهل البلدة حين ينطقون لفظ الباشمهندس لا يخفون ابتسامة تدل علىٰ الاستخفاف والرثاء معا. إن اللوحة قد نجحت في رسم صورة هذا المهندس في ضعفه ، وشدة نحافته، وما تركته أم الخبائث من آثار سيئة علىٰ ملامحه الجسدية والنفسية، من وهن وانطواء وإهمال ولامبالاة ، مما كان سببا في استخفاف المحيطين بشخصه. وجدير بالبحث أن يشير إلىٰ أن الحكيم وحقي قد أجمعا علىٰ أن شرب الخمر يحول دون احترام الناس وتبجيلهم لشاربها، فوق تأثيرها السيئ علىٰ العقل والجسم .

مهنٌ بلا أخلاق

أخلاق المهنة تحث أكداس الثرى !!!

صور حقي سوء مسلك بعض الموظفين ممن عينوا في الصعيد أو نقلوا إليه، إذ بدل أن يكونوا يد عون لأهله وسببًا في تخفيف آلامه "تعاملوا معهم بقلوب كالحجارة أو أشد : ... فمن الطائفة التي سأتحدث عنها كثرة أقر لها بالفضل والإحسان، ولكن كان يزاملها مع الأسف قلة دنيئة مجنونة كرهت من عشرتها الحياة وأنفت نفسي أن تسوي بيني وبينهم كلمة إنسان. ونقل حقي بعض المواقف لطبيب المركز بوحدة منفلوط تبرهن علىٰ دناءة نفسه، وانعدام مروءته، وشدة نهمه للمال، رغم أنه يعيش في بحبوحة من العيش بمنفلوط يقول حقي مصورا بيته في

(١) – خليها علىٰ الله ص٢٠١.

منفلوط بعد زيارته له: "... أحسست أني انتقلت فجأة إلىٰ صالون _لا في القاهرة_ بل في لندن أو باريس"(١)

من هذه المواقف وأوقحها: مسلكه مع فلاح مسكين يعاني من حصوة في المثانة، تتحرك أحيانًا فتسد مجرىٰ البول محدثة انسدادا ومن ثم آلاما مبرحة لا يطيق الرجل لها صبرا، فيذهب إلىٰ هذا الطبيب فيسلكها بقسطرة إزاء ريال عن المرّة الواحدة، وفي إحدىٰ المرات كان لا يمتلك هذا المسكين الريال، فامتنع الطبيب عن تسليكها له وتركه يتلوىٰ ألمًا .(٢): ... الرجل يقبل من بعيد : يا دكتور: سايق عليك النبي أنا في عرضك اعمل معروف. يقطع الدكتور كلامه لي ويلتفت إلىٰ مصدر الصوت. وأنا لا أرىٰ صاحبه ويصرخ. هات الريال وتعال.: معنديش الليلة دي، ما احكمش علىٰ قرش واحد، من فضلك وإحسانك أنا تعبان بالحيل.. حاتْفرتك. : ذنبك علىٰ جنبك. ولما طلب منه حقي أن يريحه وأن ما يفعله هذا حرام ردّ عليه قائلًا: سيبه دا ابن كلب الريال أحسن من عينه وتركه هذا الجشع يتلوىٰ من ألمه وانصرف خائبًا(٣).

هذا عن طبيب المركز أما عن طبيب الفرز، وإهانته للإنسانية في شخص هؤلاء الشباب المساكين الذين طلبوا للفرز فحدث ولا حرج. إذ سرد لنا حقي في لوحة

(١) – خليها علىٰ الله ، ١٩٢ .

(٢) – السابق، ١٩٢ .

(٣) – السابق ، ص١٨٩، وينظر كذلك ص١٧٧، مساومته أهالي مضروب لإجراء عملية له بمبلغ باهظ من المال، وهو يعلم يقينًا فشل العملية، وحين سأله حقي في ذلك : كيف ترضىٰ إجراء الجراحة له وهو في النزع الأخير....أجاب_ واجب الأطباء التدخل ما دام في المصاب عرق ينبض! حتىٰ لو كان الأمل في نجاح الجراحة واحدا في الألف. حقي _ كان يريد إجراء جراحة لميت، من شدة جشعه للمال.

أدبية حية بعض ما كابده هؤلاء الشباب من معاناة في هذا اليوم من إهانات التي منها:

- الأمر بتجريد جميع المطلوبين - وهم كثر- من ملابسهم وأن يجلسوا القرفصاء في الساحة أمام المركز وفي الطرق المؤدية إليه- كما ولدتهم أمهاتهم - إلىٰ أن ينادىٰ عليهم الواحد تلو الآخر : ...لم يكن سبق لي أن رأيت مثل هذا المحشر الضخم من الأجساد البشرية العارية، إن رائحتهم بخار منعقد، سيظل عالقًا في الجو أيامًا بعد اختفائهم.

- قباحة الطبيب وبذاءته في معاملة هؤلاء الشباب : .. لو كان يفحص كلبًا جربًا لكانت يده أحن عليه منها علىٰ الفلاح، تراه يضع منديلًا معطرًا علىٰ فمه وما إن يرىٰ الشاب وهو داخل إلا وينزل عليه وابلًا من الألفاظ البذيئة ويسخر منه ومن غبائه وبلاهته وتخبطه وتعثره وهو يطلع علىٰ المقياس، وتهبط خشبة فوق رأسه بعد أن يُلكز في بطنه ليشد قامته[١].

ويصف هؤلاء الشباب وقد طال بهم الانتظار واجتووا بوقد شمس الصعيد الحارقة: .. تسمع لهم همهمة كانت تصل إلىٰ أذني كأنها ضجيج محنقين أو جياع تأخر عنهم مرة بعد أخرىٰ طعام موعود ، هي ضجة أناس معذبين فيها حدة مكبوتة كأنها تهارش وحوش مفترسة بالأنياب والأظافر يخالطها احتجاج يحبو دون أن يمشي أو يثب يدور بين الرجل ونفسه وبينه وبين جاره ،ثم تعلو فجأة وسط الهمهمة زمجرة عالية فتهوىٰ العصي حتىٰ يعود سطح الهمهمة إلىٰ الاستواء من جديد فإذا جاء الدور قام الفلاح تدفعه الأيدي باللكمات في قفاه وبالنخس في ظهره حتىٰ يدخل أمام اللجنة ساترا سوأته بكفيه.[٢].

(١) - خليها علىٰ الله ، ص٢٥٤.

(٢) - السابق، ص٢٥٣.

هذا وإن كان حقي قد تناول الجانب التراجيدي _المأسوي في الصعيد من القتل لأتفه الأسباب_ وشرب الخمر، وغيرهما فإنه لم يفته إبراز الجانب المشرق فيه الذي يتمثل في:

- "... رجال طوافون يشتهرون بالصلاح والتقوىٰ، :... وقد مر عليّ نفر غير قليل من هؤلاء الملوك غير المتوجين الذين يذكروا بفضلهم الواسع في فض المنازعات والخصومات والمحاولة علىٰ إبطال عادة الأخذ بالثأر كالشيخ إبراهيم القاياتي في الصعيد ".. كان له فضل في التقريب بين القلوب وتطهيرها، لم يكن كل كلامه عن الدين بل نصائح أخ مجرب. (١)

- الروح الوطنية المتجذرة في قلوب المصريين والتي - وإن ظن البعض انطفاؤها فهي كامنة سرعان ما تشتعل ، وهذا ما أوضحه حقي في تناوله لإبراهيم الهلباوي الذي ترافع ضد شهداء دنشواي وطالب بإعدامهم وقد تحقق له مطلبه، ولكن ما أن حانت الفرصة بعد سنوات من هذا الحدث وخطب الهلباوي في سرادق ضخم وأفاض في الحديث عن الوطنية الحقة - بعد أن انضم لحزب الأحرار الدستوريين- من أجل تخليص البلاد من يد المحتلين، وقوبل خطابه بالهتاف والتصفيق، وامتلأ الرجل ثقة وزهوًا وظن أن الدنيا قد صالحته، ولكنه لم يكد يفرغ من خطابه حتىٰ ارتفع صوت في آخر السرادق يهتف يسقط جلاد دنشواي .فتألب عليه الجميع.

الحكيم وحقي والقانون

كلا الرجلين تعرض لمواقف حرجة في عمله أصبح فيها علىٰ الجسر بين تطبيق القانون والتحايل عليه تحايلا يخرج هؤلاء المساكين عن دائرة المساءلة ،فكان النائب في رواية "يوميات نائب في الأرياف" حريصا علىٰ تطبيق القانون بصرف النظر عن حال من يطبق عليهم ،أما حقي فكان أكثر إيجابية وتعاطفا مع هؤلاء

(١)خليها علىٰ الله ص ١٥٧ .

المساكين ، ففي قضية انتشال عدد من الفلاحين لبعض أكياس من الملابس من الترعة ،حبسهم النائب جميعا وكانوا ثلاثين رجلا وامرأة وكان بإمكانه التحايل علىٰ القانون وإطلاق سراحهم، أليس هو القائل وقد أمر بدفن جثة ريم دون تشريح – رغم أنها كانت مفتاحا من مفاتيح القضية.: "... آه لرجال الفقه والقانون أصحاب الغرض إنهم يستطيعون أن يتصرفوا علىٰ كل وجه تصرفًا مقبولًا![1]".

وقد تعرض حقي لموقف أكثر تعقيدًا من موقف الحكيم ،وألزم للعقوبة إذا لم ينفذ القانون، فحين أصدرت الحكومة لأول مرة قانونًا يحرم زراعة القطن لأكثر من ثلث الزمام، وذلك للحد من هبوط أسعاره: ولعل الفلاحين لم ينم إلىٰ علمهم هذا القانون الجديد فزرع الزمام كله حتىٰ أوشك علىٰ إخراج شعره _ وكان علىٰ حقي أن يقوم بتقليع ما زاد علىٰ الثلث ، فما كان منه إلا أن تحايل علىٰ القانون، فاختار بعض المناطق بجوار المساقي– وأشجار القطن لا تنمو ولا تزدهر عندها – وبإغماء من عينه وغلق فمه _كما يقول_ وهو يرىٰ المساح يزوغ ويرمي القصبة مرة بمقام مرتين.:.. "كيف تطاوعني نفسي أن أقلع زرع هؤلاء الفلاحين... وفي ذهني يوم أن حرثها ثلاثًا أو أربعًا ثم سوّاها وهو محني الظهر من الصباح للمساء، ورفع خطوطها وحفر مساقيها.. يوم زنقة إطلاق مياه النيل في الحياض قبل أن ينضج القطن، بالنهار يحرس وفي يده نبوت وبالليل يهجر بيته ويرقد عند رأس الحقل علىٰ بندقيته، يسعل بين الحين والآخر، ليجاوبه جارٍ مختف يطلق عيارًا في الهواء..."[2]

والناس بالناس مادام الوفاء الحياة فالسعد لا شك تارات وهبات

(١) – يوميات نائب في الأرياف، ص١٢٤.

(٢) – خليها علىٰ الله، ص١٦٥،١٦٤.

وأفضل الناس ما بين الورىٰ رجل تقضىٰ علىٰ يده للناس حاجات[١]

الريف بين النائب في الأرياف وحقي

جرىٰ ذكر الأرياف في يوميات نائب في الأرياف وخليها علىٰ الله، فتعرض الكاتبان لبيوت الفلاحين وساكني هذه البيوت رجالًا ونساءً بيد أن نظرة كلا الكاتبين تختلف عن الآخر، ولا يبالغ البحث إذا استنتج أن تناول الكاتبين للريف تحركه عوامل عدة شكلت نفسية كل منهما، ومن ثم طَبعت عمله بطوابع معينة فالحكيم ،هذا الشاب الأرستقراطي من أم ذات ثراء واسع وأب وإن كان ابن فلاح فله مكانة في السلك القضائي، أسرة صغيرة يعيش فيها الحكيم في بحبوحة من العيش، حسن الهندام ، لا شك أن نظرة شاب كهذا للريف وأهله البسطاء المساكين الذين إن وجدوا المسكن فمسكن بدائي ".. حيطان تسكنها ديدان من الفلاحين، وإن طلبوا الملبس فحسبهم ما يستر البدن، حديثهم ينم عن سذاجة وقلة تجربة، فلا غرو إذن أن نجد نظرته إلىٰ هؤلاء المساكين لا تخلو من روح التعالي وبأنه من طبقة بينها وبين هؤلاء المساكين البون البعيد، ومن ثم فالمخالطة والحديث معهم إلا فيما تقتضيه طبيعة العمل لا وجود له، وعدم مخالطة هؤلاء البسطاء وإن كان له جانبه الإيجابي فله جانبه السلبي. وتتلخص إيجابياته فيما أتيح للحكيم من وقت يستطيع خلاله أن يكتب ويقرأ ما يشاء ، أما جانبه السلبي فيتمثل فيما حرمنا منه الحكيم من الصور الرائقة التي -لا شك أنها - تضيء جوانب هامة عن أريافنا في الصعيد وغيره ، كما قد أسهمت في تضاعف شعور ظل يلازمه طيلة عمله بالأرياف وهو " الاغتراب" وكان من أظهر مظاهره عنده ما يبديه من كثرة التأفف والضجر، والملل وكثرة الشكوىٰ، ولعل ما كتبه عن هذا الريف القحل من اليوميات وما بثه

(١) - ديوان الإمام الشافعي أبي عبد الله محمد بن إدريس، شرح وضبط د/ عمر فاروق الطبّاع، ص٥١، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت لبنان ٢٠١٦م.

فيها من مظاهر هذا الاغتراب لدليل آكد علىٰ ما استنتجه البحث فالريف في نظره ما هو إلا كفور وعزب يسكنها ديدان الفلاحين.

لذا فقد دخل الحكيم الريف وخرج منه ، خالي الوفاض من صور ذات غناء عن الجانب الأسري والتعليمي والثقافي عن هذا الريف. فلا نقف عنده إلا علىٰ نتفٍ عن ريفنا المصري لا تشبع نهم المتلقي الذي يطمع في كثير من المعرفة عنه.

وفي تصوير الحكيم للكفور والدور في هذا المركز بأنها قطعان من الماشية مرسلة في الغيطان... تعيش في بطونها ديدان من الفلاحين .[١]تنم عن سخرية واضحة

وهذه النظرة إلىٰ الفلاحين البسطاء تؤيد ما اتهم به الحكيم من أنه "شخص يشارك الشعب آلامه ولكن من بين غدق السحاب [٢] وتؤكدها مواقف عدة من الرواية لعل أبرزها: أنه حين استمع إلىٰ المتهمين بسرقة الملابس من الترعة وأنهم في نظر القانون سارقون ودفاعهم عن أنفسهم : فهمنا يا حضرة البك، لكن... بقىٰ.. الكساوي كانت قدام نظرنا ورماها البحر علينا والواحد منا من غير مؤاخذة عريان[٣].لم يحنو عليهم ولم يرأف بحالهم ولم يجتهد في البحث عن ثغرة تخرجهم من تحت طائلة القانون ولو أراد لفعل، أليس هو القائل حين أمر بدفن جثة «ريم» دون تشريح لأنه لم يرد تشريحها مع أنها مفتاح من مفاتيح القضية : آه لرجال الفقه والقانون أصحاب الغرض! إنهم يستطيعون أن يتصرفوا علىٰ كل وجه تصرفًا منطقيًا مقبولًا!..

بل كان رده علىٰ هؤلاء المساكين: المسألة مسألة قانون والقانون صريح : إن كل من وجد شيئًا مملوكًا للغير وحفظه بنية امتلاكه يعامل معاملة السارق فهمتم؟

(١) – يوميات نائب في الأرياف ، ص٥٢.

(٢) – السابق ص ٩٨.

(٣) – يوميات نائب في الأرياف، ص٥٩.

وعندما التمسوا الإفراج عنهم أنهىٰ حديثه معهم بقوله: تفضلوا من غير مطرود! دماغي وجعني والمناقشة مع أمثالكم ضياع للوقت.(١)

- رغم أن الحكيم يمجد الإنسانية- إذ يرىٰ أن الإنسان مخلوق عظيم كرمه الله تعالىٰ في كتابه الكريم- فإنه لم يستطع التخلي عن أرستقراطيته، فتراه يحب الإنسان مادام جميلًا نظيفًا سليمًا معافىٰ، فريم تلك الغانية : كدمية من الأبنوس، ومساعده : شاب رقيق الحاشية، ومحضر المحكمة "قزمان أفندي " رجل مسن أبيض الشعر والشاربين ذو منظر وهيئة يليقان برئيس محكمة عليا. أما إذا كان فقيرا مريضا جاهلا، تغيرت نظرته إليه ،ومن ثم فجل ساكنىٰ هذه الأرياف كدود الأرض ، وهم في عمومهم قد تركوا هملا يعيشون كالسائمة (٢)"ومرضاهم علىٰ الأسرة البيضاء في المستشفيات كالقردة والشيخ عصفور كالكلب .

أما حقي فهو وإن كان يبدو في الظاهر راضيا عن الريف وأهله فإن ذلك من باب التعاطف الإنساني مع الإنسان ، ممثلا في أهل الصعيد ولكنه في الحقيقة ناقم أشد النقمة علىٰ من جردوا هذا الإنسان من إنسانيته وأغرقوه في بحار من الفقر والجهل والمرض فتراه يتحدث عن الريف حديث المحب العطوف الشفيق ، يحنو حتىٰ علىٰ المجرمين، فالمجرم – في نظره – تدفعه العديد من الغرائز إلىٰ الجريمة. وتسأل عن سر هذه المفارقة بين الكاتبين، تجده رابضًا في صدر إنسان نشأ في بيئة دينيةٍ شعبية تجري في شرايينه دماء "حي السيدة زينب، دماء يمتزج فيها التدين بوداعة النفس: "... وقد حيرتني شعبيته و مصريته، وهذا الميل العنيف إلىٰ الأحياء البلدية والناس الطيبين، فرغم أنه ظل في السلك الدبلوماسي عشرين سنة، ثم تزوج بفرنسية وأصبح حديثه اليومي في بيته بالفرنسية تقريبا فهو درويش من دراويش

(١) – يوميات نائب في الأرياف ، ص١٣٢.

(٢)- السابق ص٢٩-٣١

السيدة زينب. قال لي: إنه لا يدري سببا في التصاقه بالشعب، إنما يشعر شعورا جازما بأنه جزء منه(١).

وصور حقي متنوعة بل فريدة في كثير منها : ...للفلاحين وموظفي الحكومة والدجالين و قطار الصعيد. تناول حقي الرجل في صعيد مصر بكثير من الوصف. فله لوحات أدبية رائقة في وصف الصعيدي حسيا ومعنويا. وصف يمتزج فيه الإعجاب بالفخار، إعجاب بأخلاقه وفخار بقوته وصلابته. : إن رمزت للصعيدي بشيء فبهذه الشومة... تهوي بها أذرع قوية مفتولة علىٰ الرؤوس والعظام فتحطمها وتعجنها. : منذ صغري ألحظ في زملائي أبناء الصعيد في المدرسة رجولة ونخوة وشهامة وجلدا ثم _وهو الأهم عندي_ قدرة _أشبه بالغريزة_ علىٰ تناول الحياة حلوها ومرها كما تلقاهم ويلقونها لا يفسد تمتعهم بها ابتلاء بالتهيب، والشكوك والملل وفراغة العين، والبحث في ملك اليد عما وراءه، ما سمعت منهم شكاية، ولا أحسست بهذا النازع الخبيث المتستر في النفوس الضعيفة لاستدرار العطف والحدب عليها، هو نوع من الملق والنفاق يصوِّب سهمه للداخل لا للخارج.

أعجب حقي بشخصية الصعيدي عامة ...حتىٰ الباعة الجوالين، يصفهم وصفًا يدعو إلىٰ الإكبار والاعتزاز "... يمشون في عزة كأنهم جند في استعراض عسكري لجيش ظافر تضرب أقدامهم الأرض تكاد تخرقها، أجسامهم ممشوقة، ورؤوسهم مرفوعة، بطونهم مشدودة وظهورهم مبسوطة، إذا بانت لك عظام الصدر أحسست أنها غطاء دينامو لا يلهث ولا يصفق طلبا للنجدة، كأن كل واحد منهم أمير في قومه،

(١) – يحيىٰ حقي ومجموعة دماء وطين ، د/ عبد الرحمن حسين ، ص١٥، مجلة "الزهراء" كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

أكثر ما يجذب العين فيهم رقبة طويلة مغروزة في الجسد كصخرة في جبل، هي وحدها التي تضفي عليهم هذا النبل وهذه المهابة..[١]

ويطيل حقي في وصف الصعيدي وأخلاقه حتىٰ خلص إلىٰ رأيه : لقد طوفت في بقاع الأرض فلم أجد للصعيدي ندًا في تحمله الجهد[٢]. فالصعيدي رغم كونه سريع الغضب، شجاع مقدام، عالي الهمة.

ولأهل "منفلوط"- خاصة - لوحات لحقي تستحق الذكر : وجدت أبناءها _هي وقراها_ أهل طيبة وأمانة ،وحياء لعلها سر انقباضهم عن الغرباء أمثالي من الموظفين، لم يشذ منهم إلا قرية واحدة عرفتها فيما بعد حينما تكلفت هي وحدها بأكبر نصيب في جرائم القتل.[٣]

ولم تقتصر لوحات حقي علىٰ الإنسان بل تخطته إلىٰ الحيوان والجماد فتراه يشركك حبه الحيوان بل الطبيعة عموما "... فالكل خلق الله تعالىٰ، تقاسم الإنسان حياته ومعيشته" .

وقف حقي وقفة متأنية مع الحمير، أخذت منه هذه الوقفة ثلاثين ورقة من الكتاب وعنون لها بـ" وجدت سعادتي مع الحمير".

تحدث فيها عن درجات الحمير ومدرستهم، وحمار الأجرة في الصعيد ،و حمير القاهرة وأماكن تواجدها ،تحدث عن لصوص الحمير وأماكنهم وحيلهم وحيلته في التحقيق مع سارقيهم ليكشف ادعاءاتهم، حدثنا عن حمار السيرك وشدة ذكائه ،

---

(١) - خليها علىٰ الله، ص١٣١.

(٢) - السابق، ص١٣٠، ١٣١.

(٣) - السابق، ١٤١. يقصد حقي بالقرية ، قرية «بني رازق» كما نص علىٰ ذلك، ينظر كتاب عطر القناديل مغامرة مستشرقة في عالم يحيىٰ حقي، مجيد إسحاق طوبيا، ص١٠ المجلس الأعلىٰ للثقافة، القاهرة، الأولىٰ ٢٠٠٥م.

وتراه في هذه اللوحات يشعرك بأنه ليس بعابر سبيل أو راكب قطار يتسلىٰ بالنظر في وجوه من حوله أو المارة حتىٰ ينزل في محطته ، بل يشعرك بأنه مهندس من مهندسي السكك الحديدية يرقب حركة قطاراتها وجهاز سيرها، وعرباتها، وقاطراتها وعجلاتها، حتىٰ حجرة وقودها "... فهذه الأكوام المكدسة المتناثرة في جنبات الوادي بين الجبلين من القمح والذرة والفول والشعير لا وسيلة لنقلها إلا بأكياس علىٰ ظهر الحمار، حتىٰ لتحسب أن الحمار قد مُدّ من عموده الفقري شريطًا لسكة حديدية تجوس خلال القرىٰ، وتعبر المصارف والترع والوهاد بلا جسور.. يتشمم ويبصر المطبات ويختار من بينها مسلكًا لا يعرف الجموح ولا يقفز خوفًا من خياله كالحصان الأسترالي الذي عرفته دورية المركز. (١)

ويلاحظ أن الحمير الأرستقراطية لم تثر انتباه حقي كما أثارته حمير الأجرة، ولعل مرد هذا طبيعته الوادعة التي تشفق علىٰ الضعيف "... لأني أحب أن أقف بجانب كل صعبان عليّ(٢)

نقل لنا حقي ما يجوس في نفس الحمار، فرضاه بهذه السُخرة ليس عن عمىٰ أو غفلة بل عن وعي وبصيرة.: ... وازن بين حيلته وقدرة ظالمه وقادَه ذكاؤه العملي إلىٰ الاقتناع بأن كل أمل قد مات وأن لا فائدة ترجىٰ من الثورة واللجاجة أو العناد، فوضع إرادته وغرامه وبهجته ومرحه وحبه للعب والمعابثة في حرز مكتوم في قلبه وأحنىٰ رأسه وأذنيه وسبّل ضهره واستسلم بلا قيد أو شرط قال في نفسه: فلتحسبن أن الذي يعيش في جلدك هو حمار غيرك، ولتبق لي روحي لا يعلم بسرها إلا خالقي.(٣)

(١) – خليها علىٰ الله، ص١٠٠، ١٠١.

(٢) –السابق، ص٢٢٧.

(٣) – السابق ، ص١٠٢.

أما الحكيم فلم يجر ذكر الحمير عنده كثيرا ، فكل ما ورد في يومياته بشأن الحمار ،هو أن الحمير تناسب أمثاله مما لا يجيدون ركوبها : ولطالما كدت أقع من فوق تلك الظهور اللاعبة التي لا يحكمها غير فارس بارع. ولطالما فضلت عليها الحمير الهادئة غير أني نظرت خلفي فإذا أكابر القافلة قد امتطوا الخيول ولم تبق الحمير إلا للأوباش .[١]

- لم يحرمنا حقي من صور أخاذة عن قطار الصعيد وراكبيه :"... وقد وجدتُ فيما بعد أن من أحب التسلية إلىٰ بعض الناس في الصعيد أن يخرجوا للمحطة لا لشيء إلا للفرجة علىٰ القطارات وراكبيها.[٢]

ولعل ما تمنىٰ حقي أن يجده في الكتب المدرسية – وهو صغير- عن الطبيعة كان دافعا للتوسع في الحديث عنها بكافة مظاهرها : "... لم يحدثنا أحد عن أشجار مصر وطيورها وحيوانها كأنما طلب منا أن نسير في مناكبها كالعمي[٣].

ويأخذك حقي إلي معرضه عن الطبيعة الحية ليحلل أخلاق الحيوانات، فيتحدث عن لسانه شاكيًا .

ويتسم حقي في مذكراته «خليها علىٰ الله» بالاستواء النفسي ولم يشذ عن هذا الاستواء إلا نادرا، تراه عطوفا حانيا - كما بينا- مع خلق الله جميعًا ، وحتىٰ مع الجثث التي شاهدها أو حضر تشريحها.: حضرت تشريح الجثة ولكني بقيت مشيحًا بوجهي عنها، لا يكربني منظرها بل نطقها ببرودة الموت[٤].

(١) - يوميات نائب في الأرياف ، ص١٦

(٢) - السابق ، ص١٣٣ .

(٣) - السابق، ص٦٦ .

(٤) - خليها علىٰ الله، ص١٩٠ .

فحقي رجل يحب الحياة ويئن ويأسىٰ للمعوزين والمحرومين، نفس تمتلئ بحب الخير للجميع وأتمثل في حقي قول المعري: (١)

ولـــو أني حُبيـــتُ الخلـــد فـــردا لمـــا أحببـــت بالخلـــد انفـــرادا

فـــلا هطلـــت علـــي ولا بأرضـــي ســـحائب لـــيس تنـــتظم الـــبلادا

و في حقي ميل إلىٰ «التحديد والتدقيق» ولعل أسرته وأمه خاصة كانت لها دور في هذا الميل : ".. ربتنا فوق هذا وذاك بنظراتها إذا كنا في مجمع من الناس نظرات تحوط علينا وتعلمنا كيف ينبغي أن نجلس وكيف ينبغي أن يكون الكلام المهذب، وتعيد علينا كل زلة لسان وإن كانت بريئة وتنبهنا إليها إذا انفض المجلس.(٢)

فأنت مع حقي تقرأ التاريخ بطريقة ماتعة مشوقة، خالية من التجريد تتعرف علىٰ أحوال بلادنا – في عصره وقبل عصره– السياسية والاجتماعية والاقتصادية ،ولا غرو فأنت مع رجل خبر الحياة وعمل بالسلك الدبلوماسي، رجل جاب الأرض شرقًا وغربًا كأنه أحد الرحالة : ... أبناء الجيل الحاضر في نعمة لا يدركون مبلغ الذل الذي كانت تعانيه مصر ... كان البلد لغير أهله، تجارة الصادر والوارد والمصارف والشركات... في يد الأجانب، يملكون قدرا كبيرا من الأراضي الزراعية..... أحياء برمتها مستعمرات للأجانب، هم ملاك مبانيها ومتاجرها ، اللافتات مكتوبة بالإفرنجية ، الشحاذون في هذه الأحياء من الأجانب ،سائق التاكسي أجنبي، الكمساري في الترام مصري، والمفتش أجنبي، الكمساري في المترو أجنبي، لأن المترو أرقىٰ من الترام. (٣)

(١) – ديوان أبي العلاء المعري "سقط الزند" شرح أحمد شمس الدين، ص١١٤، دار الكتب العلمية، بيروت _لبنان، ط٢٠٠٧م.

(٢) – خليها علىٰ الله، ص،٦٢.

(٣) – خليها علىٰ الله، ص٦٢.

الأفكار عند الكاتبين

لاشك أن النظم الجيد والأسلوب الجميل قوام الصورة وأن أي عمل أدبي إذا لم يحتو علىٰ فكرة فهو خواء لا طائل وراءه.

والفكرة الرئيسة والمهمة وراء رواية " يوميات نائب في الأرياف" هي تصوير فساد المنظومتين الإدارية والقضائية للدولة ،من خلال البحث عن الجاني، فالمنظومتان عجزتا عن تحقيق العدل بين الفلاحين المساكين، وهذه الفكرة تتوارىٰ خلف فكرة واضحة تتمحور حولها الرواية هي الوصول للجاني الذي ضرب قمر الدولة علوان بعيار ناري أودىٰ بحياته

وظل المؤلف يجمع خيوطا من هنا ومن هنا حسب ما أتيح له من إمكانات ليصل إلىٰ الجاني، وانتهت الرواية ولم يتحقق له مسعاه .

وفي ظل هذه الفكرة العامة حاول الحكيم أن يبث في روايته العديد من الأفكار الجزئية التي تؤكد وجهة نظره في كثير من القضايا التي من أهمها:

- ما يعنىٰ النيابة العامة من وكيل نيابتها.[١]

- لكل نوع من الزرع محصوله من الجرائم و لكل بلد نوع جريمتها وأدواتها[٢].

- العمل النيابي إذا لم يكن مدعوما ببوليس سري فقليل جدواه .

- أن القانون الذي وضعت مواده في بلاد غير بلادنا ولأناس غير أبناء جلدتنا قانون جائر، فهؤلاء الذين قد تركوا هملا طوال حياتهم يعيشون كالسائمة ومع ذلك يطلب إليهم أن يخضعوا إلىٰ قانون قد استورد من الخارج علىٰ أحدث طراز[٣]

(١) يوميات نائب في الأرياف ص ١٧

(٢) السابق ص ١٨

(٣) السابق ص ٣٢

:.... ولطالما سألت نفسي عن معنىٰ هذه المحاكمة أنستطيع أن نسمي هذا القضاء رادعا والمذنب لا يدرك مطلقا أنه مذنب[١]

والفكرة عند الحكيم تتكئ أول ما تتكئ علىٰ التصوير فالتصوير لحمة التجربة وسداها في أعماله عامة و يوميات نائب في الأرياف خاصة.

وبعد فالرواية قد عبرت عن أفكار صاحبها بصورة واضحة لا غموض فيها.

هذا عن أهم الأفكار التي تناولها الحكيم.

أما عن أفكار حقي فقد دار معظمها حول إلقاء الضوء علىٰ ما يعج به الريف المصري من أمراض اجتماعية خطيرة تفتك بالفرد والمجتمع من الجهل والمرض والفقر ، وقد بسط حقي القول عن هذه الأمراض ، وذكر جملة من اللوحات الحية المشاهدة التي تؤكد صدق رؤيته ، لوحات يمتزج فيها الوصف بالألم والحرقة والشفقة معا ، وشاهد ذلك لوحاته عن انتشار عدة ظواهر مرضية بالصعيد كالبلهاريسيا والقراع والفتاق بخلاف الحكيم الذىٰ اكتفىٰ بالإشارة إلىٰ وضاعة بيوت هذه الأرياف وانعكاس ذلك علىٰ ساكنيها فالبيوت فيها: ...لكأنها هي نفسها قطعان من الماشية ...تعيش في بطونها ديدان من الفلاحين المساكين . [٢]

وقد أسفرت الدراسة الموضوعية بين الكتابين عن : مواضع اتفاق واختلاف بين الحكيم وحقي

فمما اتفقا عليه:

- قحولة الأرياف المصرية وانعكاس ذلك علىٰ أهلها، حسيا ومعنويا ، وهذه الفكرة وإن كانت موضع اتفاق بين الكاتبين فهناك اختلاف في كيفية التناول، فالحكيم مشخص مصور صادق الشعور فأنت معه لا تجد تلك الروح الحانية علىٰ

(١)يوميات نائب في الأرياف ص ٣٢

(٢)السابق ص ٥١،٥٢.

هؤلاء الفلاحين المساكين الذين قدر لهم الحياة في ظل هذه الطبيعة القاسية كما تجدها عند حقي ،الذي كثيرا ما يربت علىٰ كتف المهموم في محاولة منه لمواساته وتخفيف ألمه ، فلم ينل من هذه البشرة السمراء كما نال الحكيم فنظرة الحكيم للرجل والمرأة في الصعيد وأنهما مخلوق جاف لا أثر للرقة فيه ،... آدميون قد جف عن تركيبهم ذلك الماء الذىٰ فيه سر امتياز الأدميين " ،..أما يحيىٰ فتراه بعد أن بين مدىٰ إرهاق المرأة في الصعيد وشدة امتهانها ترىٰ الكلمات تنساب علىٰ شفتيه معبرة عن مدىٰ تعاطفه معها وشفقته عليها":.... هي أكثر أهلنا قفزا من الصبا إلىٰ الشيخوخة"[١] .فهذه الجملة وحدها كفيلة بتوضيح وداعته وصدق مشاعره.

– عجلة القضاة في النظر في القضايا ومن ثم الحكم فيها مما يؤدىٰ إلىٰ ضياع الكثير من الحقوق علىٰ أصحابها .

وإذا كان نائب الأرياف قد تناول في يومياته "قضاة المحكمة" وصور أسلوبهم فلم يحرمنا حقي من ذلك، فأكد عجلة كثير من القضاة وسرعتهم في كتابة حيثيات الحكم قبل سماع المرافعة : ... كل شيء يجري في عجلة، رول الجلسة ٢٥٠ قضية علىٰ الأقل، بعض القضاة يأتون بقطار. ويعودون بقطار آخر بينهما وقت محدود، ينبغي إنجاز هذه الأكوام خلاله.. شهّل شهّل.. لا تتاح الفرصة لأن أوجه للشاهد سؤالًا، وإذا وجهته طلب أكثرهم _أنفة وكبرياء_ إلا أن يكون توجيه السؤال من القاضي.. وهذا التكرار يكسر حدة الهجوم ويضيع أثرها فالأولىٰ التنازل عنه..[٢]

رأيت أغلب القضاة يكتبون الحكم وأنا في أول المرافعة، لأن القضية واضحة كالشمس، وكل كلام لغو...[٣]

(١) – يوميات نائب في الأرياف ص ٥١،٥٢.

(٢)خليها علىٰ الله ، ص٨٥.

(٣) – يوميات نائب في الأرياف ، ص٨٥.

- اتخاذ الحكيم وحقي أسلوب المقارنة للتعبير عن بعض الأفكار الجيدة عند الغرب وليست عندنا ، سواء فيما يخص التعليم أو النظم الإدارية والقضائية فحدثنا الحكيم عن البوليس السري في أوروبا وتمنىٰ أن يكون لدينا بوليس سري علىٰ النظام الحديث وقاضي تحقيق : ينقطع لقضايا الجنايات كما هو الحال في أوربا والعالم المتحضر إنهم ينظرون هناك إلىٰ أرواح الناس بعين الجد ، أما هنا فلا أحد يأخذ ذلك علىٰ سبيل الجد " [١]

كما قارن حقي- من بعض الجوانب - بين التعليم في "مرحلة الليسانس" في مصر وفي أوروبا. مقارنة تفضي إلىٰ تفوق الغرب علينا، فيغبط زملاءه في أوروبا ،إذ يمتحنون في بعض المواد دون بعض بخلاف الاختبار في مصر، فمن الضروري اجتياز الاختبار التحريري والشفوي في جميع المواد وبنسبة لا تقل عن ٦٠٪ في كل مادة ، الطالب عندنا لو رسب في مادة واحدة فعليه إعادة السنة كاملة في جميع المواد، أنهم يدرسون قانون بلادهم وحسب أما نحن فبعد إلمامنا "بسطحية "بالقانون الروماني ينبغي أن ندرس الشريعة الإسلامية، والقانون الأهلي، والقانون المختلط مع الرجوع في أغلب المواضيع إلىٰ القانون الفرنسي...[٢]

- انفرد حقي بالعديد من اللوحات الأدبية التي تحوي الكثير من الأفكار والعادات في المجتمع ،فأفاض في الحديث عن أهل الصعيد وعاداتهم كالأخذ بالثأر وأسبابه وعن الحمير والقطارات ووصف الكثير من المدن التي نزل أو مر بها كمنفلوط والبحيرة والإسكندرية.

(١) - يوميات نائب في الأرياف ، ١٤٦

(٢) - خليها علىٰ الله، ص٩.

– كان الحكيم أكثر تناولا وإضاءة لبيان جهل الفلاح بكثير من حقوقه المهملة، كحقه في شرب الماء النظيف النقي ، وحقه في التثقيف بما له وما عليه. ،كما كان أكثر إضاءة لبيان جهل الفلاح بكثير من حقوقه المدنية والقضائية .

– عرفنا الحكيم بالكثير من المفاهيم والموضوعات عن القضاة والنيابة فالناحية التثقيفية عند الحكيم في هذين الجانبين أبرز وأوضح .

– أفكار الحكيم وحقي يسري فيها روح التلاؤم والاتساق.

– تكاد تتمحور أفكار الحكيم حول دائرة عمله ، بينما توسعت أفكار حقي وتوزعت حول موضوعات شتىٰ منها النيابي و الاجتماعي والقضائي و السياسي والوطني .ورغم انحسار أفكار الحكيم في الرواية حول دائرة النيابة والقضاء فقد أشبع نهمنا المعرفي حول كثير مما يجرىٰ في هاتين الهيئتين ، بأسلوب حي مصور مشوق، فحدثنا عما يجرىٰ في العملية الانتخابية ، ما يعنىٰ – الكثير – من رجال العدل والنواب العموميين وإن" ... ما يعنىٰ جهاتنا الرئيسة هو ذلك "الملف" وسرعة التصرف فيه (١)

– بيانه أن لكل بلد نوعا معينا من الجرائم .

ولعل حالة العزلة التي فرضها الحكيم علىٰ نفسه في هذه الأرياف حالت دون الاستمتاع بما في الطبيعة الريفية ومن ثم تصويرها، بل إنه حين صور بعض جوانب منها صورها بعين السخط ، ما يشي بشدة ضجره لوضع هؤلاء الفلاحين المساكين ، ولا يجانبنا الصواب إذا قلنا إنه لولا شخصية "ريم" – التي خففت من رتابة الزمن – ما كانت رواية يوميات نائب في الأرياف، فقد علقت هذه الفتاة بقلب النائب ما دفعه قسرا لأن يعيش اللحظة، وقد عبر هو عن ذلك في أكثر من موضع

(١) – يوميات نائب فىٰ الارياف ص ١٤٧ .

فبعد أن علم بموت هذه الغادة غرقا قال : ...وأطرقت قليلا أفكر في سوء حظنا لا من حيث العمل، ولا لأن ريم مفتاح من مفاتيح القضية، بل لأنها كانت صورة بديعة هزت نفوسنا جميعا عاقلنا ومجنوننا، ومخلوقا حلوا منحنا أويقات حلوة ولحظات مشرقة ونسيما عليلا هب علىٰ صحراء حياتنا العاطفية المجدبة في هذا الريف القفر. "[١]

وكذلك امتناعه عن تشريح جثتها : ...وفجأة تنبهت إلىٰ فظاعة هذه العبارة ، نعم لأول مرة أجدها فظيعة ، طالما شرحنا جثثا ، وإني لعلىٰ استعداد لتشريح نصف أهالي هذه البلدة أما هذه الفتاة ...أما هذا الجمال فحرام أن نمزقه ونرىٰ ما بداخله[٢]. فريم كانت مفجر ينبوع هذه التجربة و أظن أن هذه الشخصية لو لم تكن ذات حظ من الجمال لما كانت لهذه اليوميات وجود –أيضا– فقد نبض قلبه بحبها ، وإلا فلماذا لم يكتب روايات قبل هذه الرواية وقد مر عليه العديد من جرائم القتل – لفتيات وفتيان – في بحرىٰ وفي الصعيد ؟يؤكد هذا الاستنتاج قوله وقد غرق في التفكير وهم في طريقهم بها إلىٰ المركز لإتمام التحقيق :...ولم يكن في عقلي وقتئذ غير صورة الفتاة في أطمارها السوداء وسرها الذىٰ لم أنفذ إليه بعد ....وإني لتدفعني إلىٰ استجلاء الأمر رغبة لا شأن لها بالعمل إني أيضا أريد أن أعلم". [٣]

وتأسيسا علىٰ ما سبق ، فقوة العاطفة و صدق الأحاسيس والمشاعر هما العنصر الأبرز والمحرك الأقوىٰ لصياغة تجربة النائب" يوميات نائب في الأرياف " ومن

(١) – يوميات نائب في الارياف ص ١٣٣ .

(٢) – السابق نفس الصفحة .

(٣) – السابق ص٢٨ .

ثم فهذه الرواية تحوي بعض المشاهد التي تدخل تحت مظلة السيرة الذاتية للحكيم.

- **ويلاحظ البحث أن** عاطفة النائب كانت في أوج قوتها في اليوم الأخير من يوميات الرواية وهو اليوم" ٢٢" بعد علمه بموت الفتاة "ريم" . ولعل عاطفة الغضب كانت هي الأبرز في هذ اليوم تبين ذلك مما أفرزته اللغة من الحدة والصراحة في النقد لكثير من الجوانب التي تخص القضاء والإدارة في مصر، ولعل هدوء النفس واستواء العاطفة في الأيام الأولىٰ من هذه اليوميات كان مرده – كما أشار هو – هذه الأويقات الجميلة التي جاد بها الزمن لهذا الشاب في هذا الريف القحل بظهور تلك الغانية ،أما وقد ماتت فالنقمة علىٰ الجميع هي الجزاء .

أما عاطفة حقي فتميزت – كما أشرنا – بالاستواء النفسي ولا غرو فحقي كتب مذكراته بعد أن نفض عن يده تراب الميري بسنوات طوال ومن ثم كانت مذكراته ليست سوىٰ ذكرىٰ لأناس يحمل لهم الحب و الشفقة، كما لم تستطع السنين أن تهضم تلك المشاهد المأساوية التي طبعت في ذاكرته أو تخفف من غلوائها، ومن ثم وجدنا فورانا عاطفيا من وقت لآخر تجسده تلك اللوحات ،كما في تناوله طبيب المركز تحت عنوان" فراغة عين ، و نهم المال ،" وفي خطبة وفاء النيل ومقاليه عن يوم الفرز وفهمىٰ النجار ....الخ ومشاعر حقي في مذكراته مشاعر نفس تتوق لإشاعة السلام بين الجميع. ولعل الباعث علىٰ كتابة هذه اللوحات بعد مضي ثلاثين عاما علىٰ معايشتها ،رغبة الأديب في أن يكون شاهد عيان علىٰ العصر، والمساهمة في التأريخ لفترة عصيبة مرت بها مصر في ظل الاستعمار وآثاره المرة من الفقر والجهل وإسهامه في إفراز أنماط عديدة من الناس كالانتهازي والاتكالي .

وبعد

فقد أغفل النائب جوانب علىٰ قدر كبير من الأهمية فلم يحدثنا عن الطبيعة الحية أو الصامتة في هذه الأرياف، فلم تسر في روايته تلك الروح التي نجدها في مذكرات حقي، ولعل روح حقي الفكهة المحبة للريف بكل ما تحويه من مظاهر ومشاهد جاذبة كانت وراء كثرة لوحاته الأدبية ، أضف إلىٰ ذلك أن كتابة حقي لمذكراته كانت بعد أن مضىٰ علىٰ عمله بالصعيد ثلاثون عاما، ولعله في هذه السن وبعد عمله بالسلك الدبلوماسي قد نسىٰ جانب الشقاء في عمله بمنفلوط وبقيت له تلك الذكرىٰ الجميلة للصعيد رمز الأصالة والشهامة والعزة والشموخ ، أما النائب فكان وجوده في هذا الريف وحرمانه من وسائل المتعة وسبل الهواية المحببة إليه سببا في كثرة ضجره وعدم تأقلمه ومن ثم فلا حاجة له إذن في هذا الريف وما يضمه من مظاهر هي في نظره مصدر اغترابه، أضف إلىٰ ذلك طبيعة الحكيم التي تميل إلىٰ الانزواء والرتابة وعدم الرغبة في السير في الأرض بغية النظر والمشاهدة : إني في أغلب أحوالي قاعد هامد في حوار دائم مع نفسي أفك الكون وأركبه.... [١]

(١) سجن العمر ص١١٨: ١٢٠ دار الشروق الثانية ٢٠٠٨م

رواية يوميات نائب في الأرياف رؤية نقدية المستشار الأديب صالح شرف الدين مقال بـ المجلة الإلكترونية "حروف من نور" الفصل الخامس ٢٠١٤ م ألقيت كمحاضرات في التنمية البشرية للمتقدمين للالتحاق بالسلك الدبلوماسي ،.

- يوميات نائب في الأرياف تندرج تحت ما يعرف بـ " الكوميديا السوداء " [١] لما ركزت عليه من تناول مواضيع محظورة ،التي منها الموت والقتل والانتحار و الجريمة .[٢]

ويرىٰ نعمان عاشور أن الكوميديا السوداء تعد القالب المفضل لدىٰ كثير من كتاب الواقعية ذات الصبغة الاشتراكية . [٣]

❁❁❁❁❁

(١) - الكوميديا السوداء " نوع متميز وحديث من المؤلفات المسرحية ، ويعرف أيضا باسم الكوميديا القاتمة . مصطلحات فكرية ، سامي خشبة ، ص ١٥، المكتبة الأكاديمية ١٩٩٤م .

(٢) - الأدب الحميم في النثر الحديث ،منصور قيسومة ١٥٩ ،الدار التونسية للكتاب ،٢٠١٢م

(٣) - المسرح الاجتماعي ذو الدعوة السياسية عند نعمان عاشور د محمد مبارك- ص ٣٠٢، المركز العربي للإعلام ، ١٩٨٦.

الفصل الثاني

"يوميات نائب في الأرياف" و "خليها على الله" دراسة فنية

يجدر بالبحث أن يعنىٰ في هذه الدراسة بإلقاء الضوء علىٰ جانبي الشكل والمضمون في هذين العملين اللذين هما محل الدراسة، لما لهما من أهمية بالغة إذ تكشف عن أسلوب الكاتبين ومواطن الاتفاق والاختلاف بينهما ، واللغة عندهما وأهم خصائصها .

- الأسلوب عند الكاتبين

عبر الحكيم وحقي عن أفكارهما بأساليب عدة أهمها:

- الواقعية

مال كل من الحكيم وحقي إلىٰ الواقعية في معالجة أفكارهما ، فإذا راعينا نسق الرواية الواقعية في عمل هذا النائب، التي تعنىٰ برسم ملامح الشخصيات ونسج التفاصيل المترابطة وفضاءات الصراع في هذا الريف وراعينا – أيضا– نسق اليوميات المتكئ علىٰ بنية التاريخ القصير المنضبط من ١١: ٢١ أكتوبر، تبين لنا نجاح الكاتب في إضفاء روح الواقعية علىٰ عمله، وذلك من خلال سرده وتصويره لما وقع بالفعل في الفترة الزمنية التي حددها ،فقد عكس صورا من الفقر والظلم والجهل في هذه الأرياف، وكما قال د. عبد الله خضر" إن خير ما أثمرته الواقعية في أدبنا العربي ما كتبه الحكيم في روايته يوميات نائب في الأرياف.[١]

وقد تجلت الواقعية بكل أشكالها في الرواية فهناك واقعية الشخصيات، فشخصيات الرواية حقيقية، وعلىٰ رأسهم شخصية النائب الذي يمثل الشخصية

(١) الأدب العربي الحديث ومذاهبه د. عبد الله خضر حمد ، ص، ٢٠٨ – دار الفجر للنشر والتوزيع النزهة الجديدة القاهرة مصر ٢٠١٧م

الرئيسة التي تتمحور حولها الأحداث، وأحداث الرواية واقعية فلا تخيل ولا اختراع،فالأحداث وأماكنها في الرواية أماكن حقيقية.

والواقعية كما يرىٰ د/ غنيمي هلال ،ليست في نقل الواقع بل في الإيمان بأن الوقائع العادية وبخاصة في القطاعات الدنيا من المجتمع تمثل أعمق حقائق الحياة.(١)

والمدرسة الواقعية النقدية ترتكز علىٰ جملة من الخصائص لعل أبرزها التركيز علىٰ الجوانب السلبية في المجتمع مثل الجريمة والفقر والجهل والظلم، في محاولة من أصحابها لعلاج مثل هذه الظواهر التي يعاني منها المجتمع.

وقد تمحورت الرواية حول العديد من هذه الجوانب ، من خلال تصوير العديد من قضايا المجتمع فقد عني الحكيم بتصوير ملامح الشخصيات والعناية كذلك بسرد التفاصيل المرتبطة بالحدث.

فعن مباني الريف القليلة والبدائية يحدثنا الحكيم !:... وأين ينفق وقته هذا الشاب – يقصد مساعده- الذي جاء من العاصمة منذ أيام حيث الأنوار والملاهي والضجيج إنه الآن لا يكاد يرىٰ غير مبان قليلة أكثرها متهدم، وغير هذه الجحور المسقفة بحطب القطن والذرة يأوي إليها الفلاحون. إنها في لونها الأغبر الأسمر لون الطين والسماء وفضلات البهائم ،وفي تكدسها وتجمعها كفورا وعزبا مبعثرة علىٰ بسيط المزارع لكأنها هي نفسها قطعان من الماشية مرسلة في الغيطان، هذه الغيطان من البيوت التي تعيش في بطونها ديدان من الفلاحين المساكين هي كل ما تقع العين عليه في هذه البقاع، ويزيد في كربه هذا السكون يهبط علىٰ البلدة منذ الغروب (٢)

(١) النقد الأدبي الحديث ص٦١٤

(٢) يوميات نائب في الأرياف ص ٥١،٥٢.

وإذا بحثنا عن الاتجاه الواقعي في كتابات الحكيم نرىٰ أن النشأة لعبت دورا في تشكيله فأمه ... هي الجرأة والذلاقة بعينها لا تعرف الارتباك في أي كلام والاضطراب في مواجهة أي موقف..... (١)

التعادلية

سرت روح التعادلية في رواية «يوميات نائب في الأرياف» تلك التعادلية التي كانت فيما بعد من أبرز الظواهر الأسلوبية في كتابات الحكيم عامة.

وليس المقصود بالتعادلية لدىٰ الحكيم المعنىٰ اللغوي الذي يفيد التساوي بين الشيئين ،أو المعنىٰ الذي يقصد منه الاعتدال أو التوسط في الأمور، بل إن معناها عنده ينصرف إلىٰ " المقابلة والمناهضة(٢)" فإذا لم يفهم معنىٰ الكلمة علىٰ هذا الوضع فإن التعادلية تفقد حقيقة معناها ومرماها.

فكثيرًا ما يكشف الحكيم عن الوجه المقابل للأشياء، فالذي يظنه الناس حسنا له وجه آخر قبيح.

فبعد أن شاهد حمل بعض الأهالي لتليفون الحكومة بعد خلعه من دوار العمدة المرفوت إلىٰ دوار العمدة الجديد، هذا المشهد الذي يختلط فيه البكاء والنحيب بالفرح والسرور قال: ...إنه مظهر السلطة والحكم وأداة الاتصال بالحكومة، وإن خلعه من دوار العمدة "المخلوع" إنما هو "رمز" زوال السلطة وأن هذا العويل المرتفع من دوار العمدة القديم.. لدليل علىٰ فداحة المصيبة، وهذه المصيبة ككل مصيبة لها وجهها الآخر الباسم يطل علىٰ ناحية أخرىٰ..."(٣)

(١)- سجن العمر ٥٣.

(٢) - توفيق الحكيم ملامح داخلية: سيرة ذاتية، دار الشروق ٢٠٠٧م.

(٣) - يوميات نائب في الأرياف، ص٩٠.

ومن ملامحها عنده –أيضًا– مقابلته بين شخصية القاضيين اللذين يتناوبان العمل في المحكمة_ القاضي المستعجل الذي يسرع في النظر في القضايا حتىٰ يلحق بقطار الحادية عشرة إلىٰ القاهرة والقاضي "الموسوس" الذي يقيم مع أسرته في دائرة المركز، فهو يبطئ في نظر القضايا خشية العجلة والغلط.(١)

الفكاهة والسخرية عند الحكيم و حقي

أحاط كل من الحكيم وحقي الكثير من المواقف التي لا تتوافق مع الواقع والمأمول– بالنسبة لهما – بهالة من السخرية: والسخرية – كانت ولا تزال – من أسلحة المدرسة الواقعية خاصة الواقعية النقدية، فاتخاذ الحكيم «السخرية» أسلوبًا للسرد محاولة منه لإضفاء الشكل الواقعي علىٰ روايته موضحًا أن ما نراه في هذه الرواية إنما هو تسجيل حقيقي لتجربة واقعية.(٢)

والسخرية ليست ذات مدلول تقدمي دوما فقد تكون أيضًا ذريعة لتبرير العجز والاستسلام أو تغطيتهما، ومهما يكن من أمر فإن هذه السخرية هي التي تنقذ موقف نائب في الأرياف من السقوط نهائيًا في المجون اللاأخلاقي .(٣)

ويوميات نائب في الأرياف – كما سبق أن أشرنا – وإن كانت تتمحور ظاهريًا حول قضية مقتل قمر الدولة علوان فإن وراء هذه القضية عقدة أكثر تركيبا وتعقيدا يرمي إليها الكاتب، تتمثل في الفساد والتخلف والمرض والجهل والفقر الذي لا حدود له في هذه الأرياف. هذا الفساد الذي ضرب بصرح العدالة ومحاكمة الناس بقوانين يجهلونها، والانتخابات التي تزور بيد الإدارة..... فما كان بمقدور وكيل

(١) – يوميات نائب في الأرياف ٢٩.

(٢)– السابق، نفس الصفحة.

(٣)– الأعمال النقدية الكاملة، جورج طرابيشي، ص٢٧٠ دار مدراك للنشر والتوزيع، بيروت _لبنان، الأولىٰ ،٢٠١٣م.

النيابة أن يتناول هذه القضايا الشائكة التي صورت الواقع إلا بهذه السخرية وحقيقة هذه السخرية أنها تعبير عن مشاعر الحكيم الوطنية ودعوته إلىٰ تغيير الجوانب السلبية في الشخصية المصرية.(١)

فيسخر الحكيم من القانون الذي يحَاكم الناس به، موضحًا أن القانون الذي لا يعبر عن مصالح الشعب يعد قانونا جائرا.

كما يرىٰ أن تطبيق القانون لا يعني بالضرورة تحقيق العدالة، فالقانون دائما يحمي مصالح الطبقة العليا، وأنه بنصوصه الجامدة يتحول إلىٰ صنم مقدس مغمض العين فاقد البصيرة.

ويرىٰ الكاتب ب.هـ.نيوباي أنه قد حدث مع توفيق الحكيم ما حدث مع الكاتب الانجليزي " تشارلزديكنز" حين يشعر الأديب مرهف الحس وسط الاضطراب وفي أجواء الظلم بأن الشفقة علىٰ المظلومين لا تكفي، وأن الغضب علىٰ الظالمين لا يجدي ،يتخذ من السخرية اللاذعة سلاحا لتحقيق ما يهدف إليه من التنبيه والتحذير والإصلاح.(٢)

ومن المشاهد التي التقطتها عدسة الحكيم من قاعة المحكمة التي تنم عن سخريته بالقانون: الحكم علىٰ فلاح غسل ملابسه في الترعة بغرامة عشرين قرشا "... يا سعادة القاضي ربنا يعلي مراتبك؟ أتحكم عليّ بغرامة لأني غسلت ملابسي؟ - لأنك غسلتها في الترعة.- واغسلها فين؟- فتردد القاضي وتفكر ولم يستطع جوابًا... ذلك أنه يعرف أن هؤلاء المساكين لا يملكون في تلك القرية أحواضًا

(١) - عناق النيل واليانجستي" تاريخ التفاعلات بين مصر والصين" د/ حسانين فهمي حسين، ٢٠٢٠ م ، دار صفصافة للنشر والتوزيع، ورواية نائب في الأرياف المستشار الأديب صالح شرف الدين ، الفصل الخامس. نسخة الكترونية بدون صفحة

(٢)- ينظر ص١٥١ من اليوميات .

يصب فيها الماء المقطر الصافي من الأنابيب، فهم قد تركوا طول حياتهم يعيشون كالسائمة، ومع ذلك يطلب إليهم أن يخضعوا إلىٰ قانون قد استورد من الخارج علىٰ أحدث طراز..."[١]

وعن دور وكفور هذه الأرياف يقول : وتجمّعها «كفورًا وعزبا» مبعثرة علىٰ بسيط المزارع، لكأنها هي نفسها قطعان من الماشية مرسلة في الغيطان. هذه.[٢] القطعان من البيوت تعيش في بطونها ديدان من الفلاحين المساكين كل ما تقع العين عليه في هذه البقاع....."

فاللغة التي استخدمها تنم عن صورة كئيبة بائسة للقرية عكستها مرآته، فالبيوت في تبعثرها كقطعان الماشية.

وتبلغ السخرية ذروتها حين نجده يسخر من عمله كوكيل نيابة الذي هو رمز العدالة في حين أنه قد حرم منها : وتناولت من الكوم ملفا وفتحته وقرأت يا ملاذ العدل فما تمالكت أن ضحكت بصوت مرتفع ضحكة مرّة.... أنا ملاذ العدل؟ أين هو العدل؟ إني لا أعرفه ولم أره لأن أحدا لم يعطنيه إنهم يطلبون إلي أن أنظر في شكاوي الناس ولا يتنازلون هم إلىٰ النظر في شكواي وشكوىٰ المئات من زملائي وأجريت القلم في الأوراق أوسعها حفظا.[٣]

كما صور الطبقة الفقيرة في الريف التي – هي السواد الأعظم فيه – تصويرا لا يخلو من السخرية، فهم ديدان الأرض وهم قردة.[٤]

(١) – يوميات نائب في الأرياف، ص٣١،٣٢، .

(٢) – السابق ، ص٥٣.

(٣) السابق ص١٤٥

(٤) – السابق، ٥٢.

حتىٰ المرضىٰ علىٰ أسرتهم البيضاء لم يسلموا من سخرية الحكيم: ورأينا المرضىٰ الناقهين من أصحاب «الزعابيط» الزرقاء يتناولون في نهم حساءهم في أوان صغيرة من الألومنيوم وينظرون إلينا ومعنا الحكيمباشي كما ينظر القردة في حديقة الحيوان إلىٰ الحراس مع كبار الزائرين.(١)

وليست كل سخرية الحكيم سخرية بناءة ،يراد بها النقد بغية الإصلاح وإبراز الجانب السلبي في محاولة لتقويمه، بل منها ما ليس وراءه إلا الحط من قدر الشخصية التي تناولها، كما هو الحال مع القاضي الشرعي فتراه قد أوسعه وفراشه سخرية وتهكما ، فتهكم من طريقة تفكير هذا القاضي، بل ونال من الكرامة في أكثر من موضع يقول عن القاضي : ذكرتني هيئته وقلقه بقصة عنه قصها علي المأمور يوما.....

القاضي الشرعي مخاطبا الحكيم : تصور يا سيدي البك أن هذا الأفندي مدرس الجغرافيا في المدرسة الثانوية ألقىٰ فيها محاضرة علنية عن عالم نصراني اسمه «شنتون» قال إنه عرف بالضبط وزن الأرض والسماء.. استغفر الله العظيم.

الحكيم : وتأملت قليلًا في الإسم الذي نطقه القاضي واهتديت آخر الأمر إلىٰ أن المقصود به العالم الرياضي «أينشتين» ولذ لي أن أعرف ما جرىٰ، فهذا من غير شك صراع بين عقليتين واصطدام بين رأسين يحلو لمثلي دائما أن يشاهده ويقف علىٰ مداه (٢)

سرت في عمل الكاتبين روح السخرية والدعابة .

(١) – يوميات نائب في الأرياف، ص٤٩.

(٢) – يوميات نائب في الأرياف ، ص٩٦، ٩٧.

ويفرق د/ نعمان طه بين الفكاهة والسخرية في الغرض ، فالفكاهة غرضها الإضحاك، بينما السخرية قد تخرج من مجرد الإضحاك إلىٰ النقد اللاذع.(١) وقد اتخذ الحكيم من السخرية أداة للنقد ،ونقد النظم الإدارية والقضائية في الدولة علىٰ وجه الخصوص فعن نقده لاهتمامات الجهات القضائية العليا في الدولة يقول في معرض كتابته محضر تحقيق جنائي :..ولم يفتنا وشم العصفور المرسوم في أعلىٰ صدغه ...والثياب أحصيناها من "الدفية " والجلباب الغزالي وكيس النقود الذي لم يمس ، إلىٰ السروال الأبيض ذي التكة الحمراء. نعم لم ننس تكة اللباس ونوع نسيجها ، فإن ذكر التفاصيل دليل علىٰ الدقة والعناية . هكذا تعلمنا التحقيق كابرا عن كابر! (٢) .

– سخر من حال بعض العُمد وشدة فقرهم وعدم اهتمام أولىٰ الأمر بتحسين وضعهم : ... وجلسنا في المنظرة علىٰ فرش من قطيفة ذهب وبرها ولونها ،ووضع الكاتب أوراقه علىٰ خوان أعرج تعلوه رخامة مكسورة ،ونشر المحضر "تحت " مصباح كبير له دوي وطنين قد جمع حوله هوام الليل .وعن المأمور الذي دخل ليستريح علىٰ سرير في غرفة في دوار العمدة : ... وظهر المأمور وهو يحك جسمه بأظافره ويلتقط بأصبعه أشياء علىٰ ملابسه ينفضها عنه وهو يرغىٰ ويزبد:

– سرير ! أعوذ بالله! أنت عمدة أنت...؟ (٣) وعن قهوتهم يقول مداعبا ومضاحكا : ...وآه من قهوة " العمد"! إني أسميها دائما " الكلوروفورم" فما من مرة إلا أحدثت عندي عكس المقصود من شربها.(٤)

(١) – السخرية في الأدب العربي/ د نعمان أمين طه، ص٩ طبعة ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

(٢) – يوميات نائب في الأرياف ، ص ١٨ .

(٣) – السابق ، ص ٢٠، ٢١.

(٤) – السابق ، ص، ١٨ .

ومن المواقف الفكهة في الرواية ماحكاه الحكيم عن مخالفة لمتهمة تدعىٰ أم السعد إبراهيم الجرف : ... فظهرت فلاحة عجوز تدب وسط القاعة حتىٰ بلغت المنصة ووقفت بين يدىٰ قزمان أفندي المحضر فوجهها إلىٰ القاضي فوقفت تنظر إليه ببصر ضعيف ثم لم تلبث أن تحولت عنه وعادت إلىٰ الوقوف بين يدي المحضر الهرم . وسألها القاضي ووجهه في الورق : اسمك ؟

– محسوبتك أم السعد قالتها وكأنها توجه الخطاب إلىٰ المحضر، فغمزها قزمان أفندي ووجهها إلىٰ المنصة مرة أخرىٰ وسألها القاضي .– صنعتك؟– صنعتني حرمة

– أنت متهمة أنك عضضت أصبع الشيخ حسن عمارة ، فتركت المنصة ووجهت الكلام إلىٰ المحضر.... فرفع القاضي رأسه وثبت منظاره ونظر إليها صائحا: تعالىٰ كلميني هنا ، أنا القاضي أنا ،العضة حصلت منك ؟ قولي نعم أم لا، كلمة واحدة.

– عضه ؟حد الله ! أنا صحيح قبيحة لكن كله إلا العض . (١)

ورواية الحكيم لهذا المشهد تشي بروح الحكيم الفكهة التي لا يعدم عندها مواطن تتضمن دعابة حلوة ، .

ويقول مقللا من قيمة "العرض القانوني": " كلا لا ينبغي أن نبالغ في قيمة" العرض القانوني "، إن هؤلاء الفلاحين بأعينهم التي أكلها الصديد منذ الطفولة ، ومداركهم التي تركت هملا علىٰ مدىٰ حكم ولاة من جميع الأجناس لا يمكن أن يركن إليها في حكم أو تمييز "(٢)

(١) – يوميات نائب في الأرياف ، ص٣٢، ٣٣.

(٢) – نفس المرجع ، ص ١٠٦ .

- كما رُكب في طبع حقي - كما سبق أن أشار البحث - ميل إلىٰ السخرية والدعابة والفكاهة، ولم لا وقد وقف علىٰ قدرة الضحك في تخفيف متاعب الحياة وأعبائها الثقال، فالفكاهة في رأيه ليست هزلًا وتسلية فارغة، إنما هي تربية للنفس، فمن يلقىٰ الحياة _وهو يعرف حقيقتها_ بابتسامة وفأل خير ألف مرة ممن يظل يبكي ويندب حظه، فما دمنا موقنين بعدم جدوىٰ الغضب والسخط، فليس أقل من النظرة إلىٰ الجانب المشرق.(١)

ومن صور حقي الفكهة الساخرة عند قوله في عامل خانته زوجته: " ....نسيت مهنة هذا العامل الفقير الغلبان، وإنما لا أزال أذكر رأسه المكور ووجهه المرسوم بالبرجل وعينيه المستديرتين، لا عجب أن وهبه الله في شكل علامة استفهام أذنين كبيرتين نافرتين كمقبضي إبريق شاي.(٢)

كما يقول مداعبا ومفاكها عن أهل منفلوط "عرفت يومئذٍ كيف يؤكل فحل البصل، يوضع علىٰ الأرض ويدش بقبضة يد لها وقع الحجر أو يد الهاون، فلما هممت أن أقلدهم أحسست بوجع في كلية يدي، فأكرموني أيضًا بدش فحل البصل لي، يقدمونه إليّ كأنه دجاجة فصصوها لي بأيديهم ليس معنا سكين، ولا حتىٰ مبراة معنا، أسناننا فحسب.(٣)

وتراه يداعب مشاعر المتلقي بوصف هذه المرأة السمينة تصويرًا "كاريكاتوريًا" مضحكا : ونوديت المعلمة، فدخلت امرأة نصف لها وجه فتاة، وجسد برميل.(٤)

(١) - فكرة وابتسامة/ يحيىٰ حقي ١٣٩، ١٤٠.

(٢) - خليها علىٰ الله، ص٩٣.

(٣) - السابق ، ص١٧٥.

(٤) - السابق ص٩١.

يؤكد حقي هذا المسلك عنده بل ويلتمس من القارئ العذر "..فمن نفسي وقبل أي إنسان آخر سخرت. ويقول أيضا : ... إنني إذا لم أتعلم من هذا العمل كل شيء عن بلادي وأهلها فإني إذن حمار مع الاعتذار لأصدقائي الحمير.[١]

ورغم هذا الوجه الباسم فأنت تجد وراءه نفسا يكرثها هموم وطنها في القرية والمدين، في التعليم والصحة، في الفن والسياسة، وهنا تكون سخريته هادفة، ذات مرمىٰ، يدعو خلالها إلىٰ الإصلاح دعوة حادة ولكن هادئة، ورغم هدوئها تبلغ منك مبلغا لا تبلغه الخطب المنبرية أو محترفو الوعظ والإرشاد.[٢]

وبعد . فقد نجح الحكيم - بهذا المنحىٰ الساخر- أن يصور فساد المنظومة الإدارية والمنظومة القانونية وعجزهما عن تحقيق العدل بين الفلاحين،- كما استطاع من خلال هذه السخرية أن يرسم صورة لرجل الشرطة الفاسد الذي يجعل كل همه إشباع بطنه والمحافظة علىٰ "كرسيه " فصور المأمور رجلًا لا يتورع عن الحرام فهو يقامر ، ويزور صناديق الانتخابات.[٣]

- وفق الحكيم من خلال هذا المنحىٰ في تصوير حقبة زمنية بائسة قاسية لريفنا.

وإذا وازنا بين الفكاهة والسخرية عند حقي وعند الحكيم نجد أن بينهما بونا بعيدا ،إذ السخرية عند حقي ترمي إلىٰ إضحاك المتلقي أولا ، وتصوير قضايا أريافنا ثانيا بأسلوب كاريكاتوري ساخر ،ببنما هي عند الحكيم ترمي إلىٰ النقد اللاذع أولًا والإضحاك ثانيًا.

---

(١) - السابق، ص١٤٠. ولمزيد من النتائج ينظر مبحث الريف عند حقي.

(٢) - قمم أدبية/ نعمات أحمد فؤاد ٢٥٦.

(٣) - توفيق الحكيم أثاره وكتاباته، د/ إسماعيل أدهم، د/ إبراهيم ناجي، ص٩٨، مؤسسة هنداوي (طبعة ٢٠٢٢م).

– سخرية الحكيم في روايته سخرية مرّة شديدة المرارة فلم تقف عند هؤلاء الفلاحين المساكين بل تخطتهم إلىٰ رجال الإدارة والقانون فتراه يصور شدة نهم المأمور والعمدة للأكل : وجعلت أنظر ساعة إلىٰ هؤلاء المخلوقات وبينهم المأمور يأكلون وينهشون ويزدردون. (١)

وليس أدل علىٰ ذلك من سخرية الحكيم من القاضي الشرعي وفرّاشه فقد وصفهما وصفا مزريا يحط من كرامتهما ويقلل من هيبة القاضي : دخل علينا الفرّاش وهو نصف شيخ : أعني يلبس العمامة علىٰ جلباب عادي قذر كجلابيب الفلاحين، وهو عاري القدمين، وقدم لنا فنجانين من طرازين مختلفين قد كُسر مقبضاهما، فشربت في احتراس وأنا أنظر إلىٰ داخل الفنجان خشية أن يكون فيه بدل السكر صرصار.(٢) وكانت اللغة من أكبر وسائل الحكيم في سخريته ، فالملبس القذر، القدم الحافي، عرّيا صورة هذا الفراش.

أما حقي فقد حالت وداعته ودماثة خلقه وحسن عشرته من النيل من أحد أو السخرية منه حتىٰ من ألد أعدائه .

المفارقة في يوميات نائب في الأرياف

وتهدف المفارقة – التي هي: تجاوز خارج المألوف لبعض الأفكار المتناقضة– إلىٰ تقديم عرض مدهش أو رؤية غير متوقعة، وعلىٰ هذا فللمفارقة وظيفة حيوية تكمن في كونها إحدىٰ طرق الصياغة والتحليل الأدبيين إذ تنطوي علىٰ النظر في

(١) – السابق، ٤٥ .

(٢) –يوميات نائب في الأرياف، ص٩٨ .

العبارات المتضاربة ظاهريا واستخلاص الاستنتاجات إما للتوفيق بينها أو لتفسير وجودها.(١)

وقد أسفر البحث عن : ميل الحكيم إلىٰ استخدام «المفارقة» في معالجة الكثير من الأفكار، والمفارقة تكشف عن مدىٰ التناقض في الأمر الواحد، أو بمعنىٰ آخر الشيء الواحد في هذا الأسلوب له وجهان وجه إيجابي ووجه سلبي والعجيب أن الأمر يسير علىٰ الوجهين مما يمثل لونا من العجب لما ينتج عن هذه المفارقة من الفوضىٰ بل وكثير من المرارة والسخرية.

ومن صور المفارقة في الرواية ما أوضحه الحكيم من عبث الحكومة في كثير من المواطن، فمن المفترض عقلا أن تكون الحكومة داعمة للديمقراطية وساعية إلىٰ سيادة الحرية والعدالة وهذا عكس ما يفعله رجال الحكومة في تشكيل الوزارات، فينقل الحكيم حوارا دار بينه وبين مأمور المركز يبين سياسة المأمور في الانتخابات.

المأمور مخاطبًا وكيل النيابة:.. دي ديمًا طريقتي .."

: "...الحرية المطلقة، أترك الناس تنتخب علىٰ كيفها لغاية ما تتم عملية الانتخابات وبعدين أقوم بكل بساطة شايل صندوق الأصوات وأرميه في الترعة وأروح واضع مطرحه الصندوق اللي احنا موضبينه علىٰ مهلنا.

_ وكيل النيابة: شيء جميل! قلتها في شيء من الاستغراب ممزوج بخيبة الأمل.(٢)

(١) – ينظر مقال" نقاش" علىٰ الويكيبديا نقلا عن Rescher، Nicholas. A cat says ruff Resolution. *Open Court: Chicago 2001.*

(٢) – يوميات نائب في الأرياف، ص١٢٠.

– ومن صور المفارقة أيضا بيان الظلم الواقع علىٰ كاهل رجال العدالة أنفسهم فيظلمون في حين أن المفترض فيهم العمل علىٰ رفع الظلم عن المظلومين، ومن مظاهر ذلك : ما يحدث في حركة التنقلات. تجد وكيل النيابة في الصعيد يُنْقل إلىٰ دائرة أخرىٰ غير دائرته ولكن في الصعيد أيضا ، في حين أن زميله وكيل النيابة في القاهرة – مثلا– حين تجري عليه حركة التنقلات ينقل إلىٰ دائرة أخرىٰ في نفس المدينة.(١)

ويتعجب الحكيم من تلك المفارقة والتي تتمثل فيما كتب في بنود الاستمارة المرسلة من النائب العمومي والخاصة بالتحقيق في قضايا التسمم –إذ تتضمن أسئلة معينة المفترض أن يجيب المسموم عنها، ذلك الشخص الذي يعالج أعراض التسمم، فيتعجب من هذا الكلام المطبوع علىٰ الاستمارة التي وضعت فوق مكاتب العاصمة في صفاء وهدوء بالٍ بعيدا عن مناظر القيئ والإسهال!!(٢)

ومن أبرز المفارقات في الرواية وأمضّها سخرية المحاكمة والحبس لمدة شهر لمسكين قام بسرقة كوز ذرة يسدَّ به جوعته ، والحكم علىٰ من غسل ملابسه في الترعة بغرامة عشرين قرشا، والسجن الجماعي لأكثر من ثلاثين فقيرًا لانتشالهم ملابس من الترعة كانت قد سقطت فيها – بعد أن انحسر عنها الماء.

وفي الرواية الكثير من مثل هذه النماذج، وقد حرص الحكيم علىٰ سوق هذه المفارقات لتعزيز نظرته إلىٰ القانون، وأنه صارم كحد السيف علىٰ الفقراء، لطيف متسامح مع الأغنياء وأصحاب النفوذ، فهذا مأمور المركز رغم قيامه بسجن وحبس شباب أبرياء قسرا أربعة أيام دون جريرة حتىٰ انتهاء الانتخابات، لم يحاكم

(١) – يوميات نائب في الأرياف ، ص ١٤٢.

(٢) – السابق ص١٢٧.

أو يبلغ عنه. و قيام عمدة من الموالين للحكومة بحبس وضرب أحد المُحضرين أثناء قيامه بتأدية واجبه بتنفيذ الحكم علىٰ هذا العمدة ، ولم يُتخذ ضده أي إجراء.

فالرواية تصور متناقضات عدة تزخر بها الحياة اليومية في الريف وما يعانيه الفلاح من ظلم ،وكيف أن العدالة تقف عاجزة عن الدفاع عن هؤلاء الفلاحين البسطاء الذين يئنون تحت وطأة الجهل والفقر والمرض.

المفارقة في مذكرات حقي

مفارقات حقي استدعاها التعجب ،وأثارتها تساؤلات عن طباع البشر، وفجرها الموقف، وكيف أن السواد الأعظم منه يسيء إلىٰ من أحسن إليه، ويقابل الإحسان بالنكران والجحود، فهذا الطبيب الذي عين في منفلوط براتب مضاعف، بدل أن يكون وسيلة لتخفيف آلام المرضىٰ ،أسهم في تفاقم العلة، وسعىٰ في ابتزاز أموال هؤلاء المساكين، والغنىٰ علىٰ حساب فقرائهم فتراه يأخذ في مساومة أهل المريض لإجراء عملية جراحية يعلم سلفا أنها غير ناجحة، فيطلب أجًرا باهظًا تنوء به جيوبهم وقد يكون هذا الأجر هو مصاغ الزوجة.(١)

وهذا الأخر دائم الابتسام لصديقه : ولا يقابله في درب أو طريق إلا بالأحضان والقبلات ، يحيك لزميله المكائد ويحصي عليه _في نوتة صغيرة في جيبه زلاته وأخطاءه حتىٰ إذا واتته فرصة للنيل منه اهتبلها " وصدق من قال: بعض العناق خديعة ونفاق".كما في مقاله "سينما بدون رخصة... " (٢)الذي يكشف عن عدم الوفاء وقلة المروءة.

– وتكشف المفارقة عنده عن فعل المكان بالإنسان أو بمعنىٰ آخر عن أثر البيئة علىٰ الإنسان، وطبقها علىٰ الفتاة في الصعيد تراها صغيرة رشيقة القد وسرعان –

(١) – خليها علىٰ الله، ص١٩٢، وينظر كذلك ص١٩٥، ٢٠٤، ١٩٩.

(٢) – السابق ، ص١٩٨.

وبعد الزواج بسنة أو اثنين – تصير كأمها " قدتهما لسعة الشمس ووقدة الفرن...وامتهنهما وعطرهما بشذىٰ واحد عجين الجلّة وتقريصها، ودمغهما بميسم واحد بذل جهدٍ مماثل في عمل شاق متصل رتيب.... (١)

والمتأمل في كثير من مفارقات حقي يقف علىٰ مدىٰ أسفه علىٰ هذا الجيل من الفتيان والفتيات في الصعيد الذين نهشهم المرض وقست عليهم الطبيعة فقفزوا سريعا من الصبا إلىٰ الهرم ومن الشباب إلىٰ الشيب _ولا يد تربت علىٰ كتفهم وتنتشلهم من الضياع فتسعىٰ لإدخال الماء النظيف إلىٰ البيوت وتجتهد في أن يكون في هذه البلاد صرف صحي حفاظا علىٰ الصحة العامة.

كما كانت المفارقة أداة لبيان أثر الخمر "أم الخبائث" علىٰ الشخص وكيف تعجل بشيخوخته ومن ثمَّ تُصرع شاربها وتودي به ، يؤكد ذلك ما جاء في مقاليه "بيت البشمهندس"_ و"الخمارة" . (٢)

- الاستطراد

يُعد الاستطراد من أبرز الظواهر الأسلوبية في يوميات الحكيم، فقد أحصىٰ البحث في هذه الرواية ثمانية عشر استطرادا في مائة واثنتين وأربعين صفحة التي هي مجمل صفحات الرواية بنسبة تصل إلىٰ ١٣٪.

ولعل إحساس وكيل النيابة بالاغتراب في هذه الأرياف كان وراء ميله إلىٰ الاستطراد. فهذا الاستطراد – في نظر البحث – ما هو إلا لون من ألوان التسرية عن النفس وملء الفراغ، فكثيرا ما يكون الاستطراد وليد الدواعي النفسية، فوق كونه وسيلة جيدة لطرح الأفكار المبالغ فيها وكأنها أفكار واقعية لا ادعاء فيها ولا مزايدة ،.من ذلك ما نص عليه في أمر التحقيق في مقتل قمر الدولة علوان، و قيامه بوصف

(١) – خليها علىٰ الله ، ص،٢٠٥ .

(٢) – السابق ص٢٤٤وكذلك ص١٩٥، ١٩٩.

المجني عليه وملبسه وشكله بكل دقة وبينا هو كذلك إذ أخذ في بيان ما حدث معه في أحد التحقيقات في حادث قتل أيضا:..... وأذكر أني تركت ذات مرة جريحا يعالج سكرات الموت، وجعلت أصف سرواله وتكته «وبلغته» ولبدته فلما فرغت انحنيت علىٰ المصاب أسأله عن المعتدي عليه فإذا بالمصاب قد توفي.[١]

وهذا – بلا شك – يصور فساد الإجراءات التي تطلب من وكيل النائب العام القيام بها.

وتراه– أيضا –وقد أخذ في وصف مكان الحادثة ،يستطرد إلىٰ بيان أن لكل نوع من أنواع الزرع محصوله من الجرائم. ثم يعود ثانية إلىٰ تصوير مكان الحادث ووصف المجني عليه شكله وملبسه ولون شعره... إلخ.[٢]

– من ذلك أيضا بيانه لطبيعة مسلك بعض القضاة التي يمكن تلخيصها في جملة واحدة "القضاة بين الإفراط والتفريط" فالحكيم في إيضاحه لطبيعة عمل القاضيين اللذين كانا يعملان في المحكمة التي هو في دائرة نيابتها ينعىٰ مسلك القاضيين، علىٰ السواء فأحدهما رجل سريع في النظر في القضايا، كل همه أن يلحق قطار العودة حتىٰ لو لم يتم له النظر في جميع القضايا[٣] فيستطرد الىٰ تصوير مشهد سابق لهذا القاضي يدل علىٰ مدىٰ عجلته واستهتاره بأمر المسجونين وأصحاب القضايا : وتناول معطفه الأبيض ووضعه علىٰ ذراعه وسلم علينا وانصرف إلىٰ المحطة في شبه ركض، وإذا كاتب النيابة يدخل مسرعًا ببعض الملفات يصيح _القاضي مشي؟ عندنا معارضة في أمر حبس معروضة علىٰ حضرة القاضي فقلت له في الحال الحق القاضي علىٰ المحطة قبل ما يركب وجروا كلهم خلف القاضي الراكض،

(١) – يوميات نائب في الأرياف، ص١٨، وانظر كذلك ص٢٨.

(٢) – السابق ، ص١٨.

(٣) – السابق، ص٧٨.

هذا منظر مألوف لأهل البلدة في يوم هذه الجلسة، فإن المعارضات المتأخرة والتجديد لأوامر الحبس تنظر وتُمضىٰ في «بوفيه» المحطة قبل قيام القطار بدقيقتين، ويتحرك القطار وقدم القاضي ما زالت علىٰ الرصيف والأخرىٰ في العربة الأخيرة وهو يقول: رفض المعارضة واستمرار حبس المتهم فيدون الكاتب منطوق الحكم فوق رخامة مائدة البوفيه بينما يتسلم القاضي من شعبان الراكض خلف القطار المتحرك "سلالي" البيض والزبد واللحم..."[١]

- وقد يستطرد الحكيم للتدليل علىٰ صحة رأيه وتبرير مواقفه ليقنع المخاطب به.

فحين فكر مساعده _وهو شاب حديث عهد بالخدمة و الإقامة في هذا الريف أن يختلف إلىٰ النادي لقتل الفراغ؛ أبان له خطأ هذا المسلك ،وسوء عاقبته، واستطرد لبيان طبيعة النادي ونوعية رواده، وألوان التسلية فيه : أما أهل النادي فهم بالطبع رجال الإدارة وطبيب المركز وبعض الأعيان والموظفين وصاحب الأجزخانة ولا يشغل هؤلاء في ذلك المكان غير لعب الورق «والطاولة» واغتياب الناس فهل يليق بممثل النائب العام في هذا المركز أن يندس في هذه الزمرة ولقد قلت لمساعدي إني شخصيًا أفضل أن يكون عضو النيابة بعيدًا عن كل هذا إذا كان يريد أن يبجله الجميع..."[٢]

(١) -يوميات نائب في الأرياف. ص٧٦،٧٨.

(٢) - يوميات نائب في الأرياف ص٥٢، ٥٣، ٥٤.

- التفكير الناقد(١)

أبانت الدراسة عن قدرة الحكيم علىٰ التفكير الناقد، الذي من أبرز مظاهره عنده قدرته علىٰ التحليل والتفسير وربط المقدمات بالنتائج، فلديه القدرة علىٰ تحليل المواقف والأشخاص والحوادث، فلا يمر بالحدث إلا وقد أبان عن سببه ودلل عليه؛ ولعل مرد ذلك طبيعة عمل النائب التي عمادها التدقيق والإمعان في التحري بغية الوصول إلىٰ حكم صحيح، أضف إلىٰ ذلك طبيعة الحكيم الهادئة الرزينة التي تميل إلىٰ الرتابة والتفكير العميق.

ومما يدلل على تفكيره الناقد

– ما توصل إليه من أن لكل نوع من الزرع محصوله من الجرائم : فمع ارتفاع الذرة والقصب يبدأ موسم «القتل بالعيار» ومع اصفرار القمح والشعير يظهر الحريق «بالجاز والقوالح» ومع اخضرار القطن يكثر «التقليع والإتلاف...(٢)

– وقوفه علىٰ السِّر وراء إصرار كثير من المخالفين وأصحاب القضايا علىٰ أن تكون قضاياهم عند القاضي «الموسوس» دون القاضي السريع ،الذي يكمن في انخفاض سعر الغرامة عند هذا القاضي إذ لا تتعدىٰ الغرامة عنده العشرين قرشًا بينما يرتفع سعرها عند زميله السريع إلىٰ الخمسين. وطالما تبرم هذا القاضي و

---

(١) – التفكير هو عملية ذهنية يتفاعل فيها الإدراك الحسي مع الخبرة والذكاء لتحقيق هدف ولا ينفصل إلا بالفعل، بينما يرىٰ رجاء عبد الحميد أن التفكير هو :القدرة علىٰ التحليل والنقد والتوصل إلىٰ نتائج مستندة إلىٰ استنباط. ينظر{نظرية التعلم والعمليات العقلية د/ محمود الربيعي، د/ مازن عبد الهادي الشمري، ص١٢٤، دار الكتب العلمية _بيروت ٢٠١٣م. فالمقصود بالتفكير الناقد _علىٰ هذا_ هو ذلك التفكير الذي يهدف إلىٰ توسيع مدارك الأفق واكتساب وجهات نظر متعددة قد تصحح ما لدينا من مفاهيم أو ترسيخها أو تثبت خطأها بموضوعية.

(٢) – يوميات نائب في الأرياف، ص٢٨.

شكا من ازدياد عمله يومًا بعد يوم دون أن يدري العلة، فكنت أقول في نفسي «ارفع أسعارك تر ما يسرك».(١)

- تحليله لما يراه من ضآلة قيمة «العرض القانوني» فيسرد مواقف تؤكد تخبط الكثير من أهل المجني عليهم في التعرف علىٰ المتهمين أثناء عملية العرض.(٢)

- تحليله وتعليله وتفنيده الأسباب التي تدعو الفلاح المصري الىٰ استئجار محترف في القتل ليقتل له :.... أم أن الفلاح يحب السلام ويأنف أن يزاول سفك الدماء بيده التي تبذر البذر ويخرج منها الخير...

ويكفينا نحن المتصلين بهذه المسائل أن لا نمر عليها بغير ملاحظة.. فوكيل النيابة إن هو إلا حاكم صغير في مملكة صغيرة إذا فهم كل شيء في هذه المملكة، ولاحظ كل شيء ودرس الناس وطباعهم وغرائزهم، فقد استطاع بعد ذلك أن يعرف تلك المملكة الكبيرة التي هي دولته بل استطاع أن يفهم ذلك العالم الأوسع الذي هو الإنسانية.(٣)

وقد وقف الحكيم علىٰ هذا الميل عنده : ...إني بطبعي لا أصلح إلا لملاحظة الناس خفية يتحركون فوق مسرح الحياة، لا أن يشاهدني الناس ممثلًا بارعًا قد سلطت علىٰ وجهه الأضواء، إن هذه المواقف تعمىٰ بصري وتُذهب لُبي وتطير ما في ذاكرتي، وتفقدني ذلك الهدوء النفسي الذي أرىٰ به أعماق الأشياء.(٤)

كما لوحظ لديه شدة عنايته بالتفاصيل، فهو إذا صور مشهدا نقله إليك بكل حيثياته وسرد عليك كل ما يتعلق به بسبب. فإذا انتقل إلىٰ موقع الحادث صور لك

(١) - يوميات نائب في الأرياف ، ص٣٠.

(٢) - السابق. ص١٠٧ .

(٣) - السابق ، ص١١٠ .

(٤) - السابق ، ٨٠.

كل ما صادفه في طريقه ،وحدثك عن هذا الزمن الذي أمضاه في مأموريته وكأنك – أيها القارئ– صديق يفضي إليه بمكنون نفسه غير آبه بما يترتب علىٰ هذا الإفضاء من عواقب، وتراه معنيا بوصف الحركات والسكنات، والملامح، ودرجة الصوت ونبرته، ويحلل لك النظرة والمشية والإشارة، وكل ما من شأنه أن يعكس المشهد بحيويته، وكأني به يريد أن يجعل منك شاهد عيان وحكما بعد أن رفدك بكل تفاصيل المشهد، ولعل مرد هذه العناية _كما بين البحث_ طبيعة الكاتب وطبيعة مهنته التي لحمتها وسداها التدقيق وشدة العناية بالتفاصيل لما يترتب عليها من أحكام.

ولا نعدم عند حقي مواضع تنم عن تفكيره الناقد وقدرته علىٰ التحليل والتعليل، ومما يدلل علىٰ ذلك عنده ربطه بما قرأ – قديما –عن سيرة الدكتور/ "البرت شفايتزر" الذي كان يعيش في أدغال أفريقيا والحائز علىٰ جائزة نوبل فعلمتُ أن الفتق كان منتشرًا بين أقوامها البدائية"[١]

- المنولوج

اتخذ كل من الحكيم وحقي " المنولوج" أو حديث النفس قالبا للتعبير عن كثير من الآراء والمواقف التي لا يحسن فيها التصريح .

ويطلق المنولوج علىٰ ذلك التكنيك الذي يلجأ إليه الأديب والقصاص _خاصة_ بغية تقديم المحتوىٰ النفسي للشخصية قبل أن يتشكل هذا المحتوىٰ في صورة كلامية علىٰ نحو مقصود.[٢]

---

(١) – خليها علىٰ الله، ص، ٢٥٤.

(٢) – د/ بشير إبراهيم سوادي، د/ نبهان حسون العدوي، شعرية تشكيل الحوار قراءة في المجموعة القصصية "مدن وحقائب" دراسة : د/ بشير إبراهيم سوادي، د/ نبهان حسون العدوي، دار الضفاف للنشر والتوزيع، ص٤٦، ط الأولىٰ ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م.

ولعل من أهم وظائف المنولوج الغوص في العالم الداخلي للشخصية في لحظة زمنية معينة، حيث يقف المنولوج حركة الزمن الخارجي ليطفو العالم الداخلي علىٰ سطح السرد الحاضر، ومن ثم يعمل المنولوج علىٰ إبطاء زمن السرد نتيجة لحالة التأمل التي يتطلبها.(١)

ولا شك أن هذا التكنيك "لعب دورا حيويا في الرواية، من خلاله يستطيع القارئ أن يقف علىٰ ما يجوس بدخائل الشخصية لا سيما الجانب النفسي، وقد لعب المنولوج في يوميات نائب في الأرياف دورا خطيرا، فمن خلاله عبر النائب عن ضيق نفسه، وشدة ضجره من طريقة بعض الشخصيات في العمل كما هو الحال في تصوير طريقة القاضيين ، وأسلوب الفتاة ريم في الإجابة عن الأسئلة .....الخ ، فالقاضي الموسوس يبطئ النظر في القضايا خشية الغلط والعجلة :... وكأنما قضي عليّ أن أربط إلىٰ منصتي لا أبدي حراكا طوال النهار، وقد وضع حول عنقي وتحت إبطي ذلك الوسام الأخضر كأنه الغُل أهو انتقام إلهي لهؤلاء الأبرياء الذين دفعت بهم إلىٰ الحبس دون أن أقصد؟ أترىٰ أخطاء المهنة تقع تباعاتها علينا فندفع ثمنها في الحياة دون أن نعرف؟(٢)

وللمنولوج حضور ظاهر في المواقف التي تستدعي النقد ،حيث لا سبيل إليه إلا بهذا التكنيك فبعد أن صور مشهد طبيب مع إحدىٰ المريضات وقد شق بطنها شقًا طوليا وخاطه خياطةً بدائية بسلك كأنه المسامير الصغيرة في حضور جمع من الأهالي بغرفة العمليات يبرر ما شعر به من دوار إثر رؤيته لهذا المشهد: أتراني شديد التأثر لمرأىٰ الأجسام الحية تعامل معاملة الجمادات..."(٣)

(١) – الزمن في الرواية العربية، مها حسن قطراوي، ص٢٤٥، طبعة ٢٠٠٤م.

(٢) – يوميات نائب في الأرياف، ص٢٩.

(٣) – السابق ، ص٤٨ .

وعن طريق المنولوج عبر النائب عما يدور في خلد أبطال الرواية، فيعكس ردة فعل المتهمين بعد أن صدرت ضدهم الأحكام ،ليعبر عن رأيه في هذه القوانين التي لم يراع عند وضعها ظروف هؤلاء المساكين : لطالما سألت نفسي عن معنىٰ هذه المحاكم أنستطيع أن نسمي هذا القضاء رادعًا والمذنب لا يدرك مطلقًا أنه مذنب(١).

ويصور موقف مساعده الجديد من الأمر بحجز عدد من الأهالي الفقراء حجزا جماعيا : .. وحانت مني التفاتة إلىٰ مساعدي فوجدته مطرقًا مفكرًا فداخلني حب استطلاع أن أعرف ما بنفسه الآن، أتراه قد تأثر بشيء! أترىٰ دقة الحس ورقة الشعور التي جاء بها كما جئنا كلنا في مبدأ عملنا الحكومي بالريف _ما زالت حية_ أم أنها في طريق الموت(٢)

ويكشف المونولوج في الرواية عن فلسفة الحكيم في الحياة والأحياء من حوله، فخطر الإنسان وقيمته إنما هو في هذا الرمز الذي به سر الحياة : ..... ولماذا لم يعد منظر الجثث والعظام يؤثر في مثلي وفي مثل الطبيب..... يخيل إلي أن هذه الجثث والعظام قد فقدت لدينا ما فيها من رموز، فهي لا تعدو في نظرنا قطع الأخشاب وعيدان الحطب ... ما مصير البشرية وما قيمتها لو ذهب عنها «الرمز».. «الرمز» هو في ذاته كائن لا وجود له، هو لا شيء وهو مع ذلك كل شيء في حياتنا الآدمية هذا اللا شيء الذي نشيد عليه حياتنا هو كل ما نملك من سمو نختال به ونمتاز عن غيرنا من المخلوقات. هنا كل الفرق بين الحيوانات العليا والحيوانات الدنيا.(٣)

(١) – ا خليها علىٰ الله ، ص٣٢.

(٢) – السابق ، ص٥٩.

(٣) – السابق ، ص٨٨.

وبعد فقد كشف المنولوج عن قدرة الحكيم علىٰ الدقة والتحري ،وعلىٰ صحة استنباطه، ورأيه في بعض الشخصيات.

وكثيرا ما عبر حقي- أيضا - عن طريق هذا التكنيك عما تجيش به نفسه وما لا يستطيع البوح به . فبعد عرضه لوحات أدبية تراجيدية عن طبيب المركز بمنفلوط وإلىٰ أي حد بلغ به الجشع يقول:.. ويلي! كنت أحسبُ أن هذه الذكريات قد هضمتها وفرزت خبثها، إذا استثرتها عادت، بعد مرور الزمن الطويل ومع ما ينشأ معه من تسامح حتىٰ مع ألد الأعداء، وهي محطمة الأنياب مقلمة الأظافر..."[١]

فتراه يقول بعد وصفه لمبلغ تحمل الحمار في الريف الجهد من غير تذمر أو تبرم "... فوضع إرادته وغرامه وبهجته في حرز مكتوم في قلبه وأحنىٰ رأسه وأذنيه وسبل ضهره واستسلم بلا قيد ولا شرط . قال لنفسه: فلتحسبن أن الذي يعيش في جلدك هو حمار غيرك ولتبق لي روحي لا يعلم بسرها إلا خالقي"[٢]

ويعبر عن خيبة أمله في أن يكون أحد الموفدين من مدرسة الحقوق إلىٰ أوروبا :" فسافروا وبقيت. سعيت لرصيف الميناء يوم سفرهم، أتتبع الباخرة وهي تشق البحر إلىٰ الأمل المنشود إلىٰ المستقبل الموعود_ أحسست أنني أودع نفسي وأن ضوءا في صدري قد انطفأ وغلبتني رغمًا عني حسرة لم يبق بينها وبين الدموع إلا القليل[٣]

- اللغة والحوار

اللغة بطاقه الهوية الدالة علىٰ انتماء مستخدمها للمجموعة اللغوية التي يتقاسم معها الفرد تجربته البشرية العامة ، لذا حرص الكاتب علىٰ أن يعطي كل نص لغته التي تناسب شخصيات روايته، بوصفهم أفرادا في مجتمع له سمات خاصه،

(١) - خليها علىٰ الله، ص١٧٩ .

(٢) -السابق، ص١٠٢ .

(٣) - السابق، ص٦٢ .

فصاحب النص له دور في أن يجعل من بطله شخصية حية، يدعها تتنفس من خلال اللغة وتفكر بلغتها الخاصة ،ويميزها عن غيرها بهذه اللغة ،ويجعل لها معجما خاصا بوصفه علاقة اجتماعية ندرجها تحت إطار اجتماعي تحيا فيه ويكمل نموها الاجتماعي.[١]

وقد عرف عن الحكيم أنه واحد من رواد الكتابة السردية الذين عرفوا بتنقلهم بين الفصحىٰ والعامية ، وقد تنبه الحكيم إلىٰ أن اللغة المناسبة في الكتابة خاصة الكتابة المسرحية "هي اللغة العربية المبسطة التي تفهم في كل البلاد العربية[٢] ومن ثم دعا إلىٰ الارتفاع بالعامية قليلًا إلىٰ مستوىٰ يمكن أن يفهمه ويتذوقه كل شخص في أي بيئة من البيئات العربية في داخل البلد الواحد وفي مختلف البلدان العربية.[٣]ومن ثم زاوج الحكيم بين الفصحىٰ والعامية، في روايته «يوميات نائب في الأرياف» وخلص إلىٰ استخدام الفصحىٰ لغة للسرد والعامية لغة للحوار. فمما تسنمت فيه الفصحىٰ كتف العامية قوله :... وبعد فالتعبير يستوجب العلم بحقيقة الشعور الرابض في أعماق النفس... وهذه الفتاة فيما يخيل إلي، ذات نفس كدغل «البوص والقصب لا يصل إلىٰ قاعها من الضوء غير قطع كالدنانير تتراقص في ظلام القاع كلما تمايل القصب..[٤]

: .. ولست أنسىٰ اضطرابي وقتئذ وقد مثل أمامي المتهم المزور بطول و ذلاقة لسانه واعتياده المثول أمام القضاة، فذهبت الأسئلة المجهزة من رأسي ولم أدر ما أقول...[٥]

(١)- استراتيجية المكان ،مصطفىٰ الضبع، ص ١٣٢ ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م

(٢) - ملامح داخلية، توفيق الحكيم، ص١٣٠، ١٢١، دار الشروق ٢٠٠٧م.

(٣) - السابق، ص١٣١ .

(٤) - يوميات نائب في الأرياف، ص٢٦.

(٥) - السابق، ص٥٤ .

ومن إدخال العامية في كتاباته قوله : ...وكيف يراد منا أن نعرف متهما في قضية غامضة كهذه القضية وكل من المأمور والبوليس "ملبوخ " من رأسه إلىٰ قدمه في تزييف الانتخابات [١] ومنها قوله :....صدقت أنا حتىٰ نفسي انصدت عن القضية وأصحابها[٢] : ...ولكني من جهة أخرىٰ أعرف قضايا التسمم وما فيها من" قرف "خصوصا علىٰ الصبح[٣]

ومن حواراته التي تبرز ميله إلىٰ العامية في الحوار، حواره مع إحدىٰ الفلاحات : اسمه حسين إيه يا وليه فيه ألف حسين في البلد : ما اعرفش نقبه يا سيدي، البنت قالت اسمه «حسين» وأنا مالي بقىٰ أسأل عن أصله وفصله... وأنا مالي، قالوا يا داخل بين البصلة وقشرتها..."[٤]

وقوله محاورا أحد الحضور في العرض القانوني وقد أمر بحجزه : ... يا سيدي البك. انهضني أنا لا عمري شفتها ولا قابلتها..:... يحجزوني؟ أنا يا سيدنا البك لي قضية مدنية تحت .... .. اعمل معروف خليني أروح لشغلي.[٥]

– وله من الحوارات ما يكشف عما يشعر به من مرارة وأسىٰ فعندما طلب عبد المقصود أفندي رئيس القلم الجنائي من النائب التصرف في كشف الجنايات حتىٰ يصدره للباشا النائب العام .: – طالب تصرف ،خد تصرف! ثم كتبت في ذيل المحضر الإشارة المعهودة : تحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل ....الخ وسحبت الجنايات الأخرىٰ وفعلت بها مثل ذلك وناولتها رئيس القلم الجنائي وأنا أقول له

(١) يوميات نائب في الأرياف ص ١٤٦

(٢) السابق ١٣٥

(٣) السابق، ١٢٣

(٤) – السابق، ص١٠٤

(٥) – السابق ، ص١٠٥

في نبرة خرجت ساخرة مريرة علىٰ الرغم مني ،مبسوط !أدحنا خلاص سددنا كشف الجنايات ! [١]

وما من شك في أن هذه المزاوجة أسهمت في إضفاء روح الواقعية علىٰ الحدث وترىٰ د/ نعمات فؤاد أن تعمد الحكيم للعامية في بداية حياته الأدبية خاصة ما هو إلا : " تأكيد للمصرية وإمعان في تحري البيئة المحلية .....فالعامية في بواكير إنتاج الحكيم كانت تأتي في السياق بالسليقة علىٰ حين يصطنعها الشباب الآن علىٰ سبيل المذهبية زاعمين أن صنيعهم مذهب أدبي جديد . ولم يقتصر دخول العامية في حوارات الحكيم علىٰ اللفظة فقط بل تخطتها إلىٰ الجملة فله من الجمل الطويلة والقصيرة ما نحا فيها هذا المنحىٰ: ...." اخرجي يا قرشانة يا وحشة يا قليلة الحيا ضيعتي وقتنا نهار بحاله، اخص علىٰ دي شهود. ولعل الحكيم كان يجنح إلىٰ العامية أيضا نزولا إلىٰ لغة المخاطب حتىٰ يفهم مدلول الكلمات إذ هي لغته التي اعتادها [٢]:.... تعال وطل بعينك ده ولا سجن الباستيل المأمور أخفىٰ بعض الأهالي في أودة التبن[٣]

(١) – يوميات نائب في الأرياف ، ص ١٤٨ .

(٢) السابق ١٠٨

(٣) السابق ١٠١ أوده: كلمة تركية بمعنىٰ حجرة وفي بعض بلاد الشام يقال أوضة باستعمال الضاد بدلا من الدال . كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية)، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة ، علق عليه ووضع حواشيه، ابراهيم شمس الدين الجزء الثالث والرابع ص ١٦٣ ٢٠٠٢م، دار الكتب العلمية بيروت .

وعلىٰ كل فإن إيراد بعض الألفاظ العامية والأجنبية في التراكيب الفصيحة لا ينال من اللغة الفصحىٰ[١]

- لا يميل الحكيم إلىٰ الثرثرة الكلامية -غالبا- فكل لفظ أو عبارة جاءت لتحمل معنىٰ مكثفا مركزا وقد وقف الحكيم علىٰ هذه السمة في كتاباته :فأنا في الغالب أميل إلىٰ الاقتصاد والإمساك عن كل إنفاق سواء كان نقودا أو كلمات ولعل هذا من أسباب تفضيلي المسرحية فهي فن اقتصادي بخيل، الكلمات فيها محسوبة بدقة والوقت فيها مقيد والحيز فيها محدد [٢]

وبعد: فلغة الحكيم في الرواية لغة تصويرية حية ناطقة متميزة في إيقاعها وتراكيبها نابضة بالمشاعر غزيرة الحركة نابضة بالحياة قوية الإيحاء والتأثير قادرة على تجسيد الوقف والحركات ، ناقلة للشعور، عاكسة لمشاعر نفس تقف مكتوفة الأيدي بين متناقضات عدة أهمها الهوة السحيقة بين قوانين لم يراع عند وضعها عقلية هؤلاء الفلاحين الذي يعيشون على هامش الحياة وبين تطبيق هذه القوانين.(٣)

وعبرت لغة الحكيم عن رأيه وكشفت عن مكنون ضميره :..... ذلك أني أحب دائما أن أعني بتحرير محضري ،أن أجعله مرتبا ترتيبا منطقيا ، والمحضر هو كل شيء في نظر أولي الأمر وهو وحده الشهادة الناطقة للنائب بالدقة والبراعة ،أما ضبط الجاني فأمر لا يسأل عنه أحد .(٤) فالجملة الواحدة تعكس بظلالها نفسية الكاتب وشعوره تجاه الحدث: .....

(١) ينظر النقد الأدبي الحديث ، د/ محمد غنيمي هلال ، ٦٢٦

(٢) سجن العمر ٢٠٩

(٣) - يوميات نائب في الأرياف ص١٥٧.

(٤) - السابق ص١٧

الحوار

الحوار عنصر أصيل من عناصر الرواية ، ينمىٰ الحدث ويصور المواقف و الشخصيات ويعكس المشاعر والأحاسيس، وقد لعب دورا مهما في يوميات نائب في الأرياف، وأولاه الحكيم كثيرا من العناية ، لذا نجح في تصوير الشخصية من الخارج وعكس نجواها ومشاعرها من الداخل .

تراه ينقل حوار أحد المتهمين بأنه لم يسجل كلبه ..: عشنا وشفنا الكلاب تتسجل «زي الأطيان» وتبقىٰ لها حيثية![1]

وحوار الحكيم في الرواية حوار ناجح من الناحية الفنية إذ استطاع من خلاله أن يعطي لكل شخصية من شخصيات الرواية اللغة المناسبة لها.

كما استعان الحكيم بالتصوير في شكواه المريرة من وضعه الآني وأن أحدا من أولي الأمر لم يعره وكثيرا من زملائه اهتماما.

وبما أن الرواية والمسرحية من الأدب الموضوعي فقد نهضت يوميات نائب في الأرياف بدورها النفسي والاجتماعي المنوط بها فعبرت عن رأي كاتبها بكل موضوعية في كثير من القضايا التي تناولتها كما أوضحت الكثير من الجوانب الاجتماعية في المجتمع وصورت العديد من المواقف التي تعكس ما يرزح تحته الريف المصري من أمراض وعرّت الجانب السياسي في مصر من بعض جوانبه من ذلك:

- سعي رجال السياسة إلىٰ تحقيق مآربهم ولو علىٰ حساب الحقيقة بدا ذلك واضحا في العملية الانتخابية وما يقوم به مأمورو المراكز من تزوير الانتخابات وحبس بعض الأهالي دون تهمة

- وتنفيذ بعض الأحكام علىٰ الضعفاء وعدم تطبيقها علىٰ الأقوياء وذوي النفوذ.

---

(١) - يوميات نائب في الأرياف ، ص٣٢.

وقد نجح الكاتب في تصوير هذه الحقائق حين نقل الحوار علي لسان المسؤول عن العملية الانتخابية في دائرته وهو مأمور المركز فكان لهذا أثره في إقناع المتلقي لأن الشخصيات وما يجري علىٰ لسانها حقيقيان، فالحدث واقعي والشخصية حية واقعية أيضا.

فالحكيم تحرىٰ الصدق في روايته ذلك الصدق الذي يعتمد في المسرحية والقصة علىٰ الموضوعية وهو ما يستلزم التبرير والإقناع من الناحية الفنية[١]

وقد أبانت جمله وتراكيبه عن العديد من المعاني والأفكار التي انعكست علىٰ مخيلة الكاتب إثر عمله كوكيل نيابة فيمدنا بشيء عن الوجه القبلي وديروط محل عمله السابق خاصة : "...الواقع أنها بلاد قريبة من الفطرة و الوحشية ! هذا الوجه القبلي من مصر شيء مخيف لساكن الوجه البحري.[٢] إن القطعة بألفاظها وتعبيراتها تعكس طبيعة المكان بقحالته وشدة حرارته وخشونة أناسه. ويلخص الكاتب رأيه في أهل الوجه القبلي في نهاية القطعة .: ... آدميون قد جف عن تركيبهم ذلك الماء الذي فيه سر امتياز الآدميين. فالكلمات فوق أنها تعكس مدىٰ تبرمه بهذا المكان ، تعكس شدة اغترابه .

والحكيم أديب صاحب ذوق سليم وحس مرهف فإذا أردت أن تقف علىٰ هذا الحس الأدبي السليم فانظر إليه وهو يصور أثر موت "ريم" عليه وعلىٰ مساعده، تلك الغانية التي وجدوها – غارقة في الريّاح القبلي بعد أن هربت من بيت المأمور : ....وأطرقت قليلا أفكر في سوء حظنا لا من حيث العمل ولا لأن ريم مفتاح من مفاتيح القضية بل لأنها كانت صورة بديعة هزت نفوسنا جميعا عاقلنا ومجنوننا،

(١) النقد الأدبي الحديث محمد غنيمي هلال ص٦٣٣ نهضة مصر بالفجالة ، بدون تاريخ

(٢) يوميات نائب في الأرياف ص ١٤١ .

ومخلوقا حلوا منحنا أويقات حلوة، ولحظات مشرقة ،و نسيما عليلا هب علىٰ صحراء حياتنا العاطفية المجدبة في هذا الريف القفر.

حقا إن الفكرة التي تحمل معاني مشرقة في نفس صاحبها تواتيها التعبيرات راغمة صاغرة ، فبين الفكرة ومعجم الكاتب اللغوي وشائج قربىٰ، كما أن بينهما تداعيات فالمعاني الجميلة تتسلل إليها الألفاظ السهلة الرقيقة فتسيل رقة وعذوبة والعكس تماما.

وبعد فاللغة عند الحكيم لغة جيدة، عكست مشاعر نفس تعتورها الكثير من العواطف والأحاسيس ،كالغضب والرضا، الحب والسخط ، والتبرم والانفعال،والكبت والإظهار، والكاتب كان موفقا في كل ما عبر، فكانت لغته وتعبيراته صحيحة صادقة ناقلة لكل مشاعره بكل وضوح وشفافية.

- ثنائية اللغة

أهم ما لوحظ علىٰ اللغة عند حقي قدرة الكاتب علىٰ المزاوجة بين التراث العربي والموروث الشعبي، فمن يقرأ بعض لوحاته الأدبية يستلفت نظره بل يداخله العجب من هذه اللغة التي تأسرك بجمالها، وحسن موقعها من النفس من ناحية، وقدرتها الجيدة علىٰ نقل فكر الكاتب بكل وضوح من ناحية أخرىٰ. وهذا التزاوج قد أسهم في إنشاء لغة ثالثة ذات صلة وثيقة بالحياة اليومية، لغة حية لا يشوبها شيء من الجمود أو الجفاء.(١)

فسرت في لوحاته العديد من الكلمات والعبارات العامية ، وهي فصيحة الأصل رغبة منه في إضفاء روح الواقعية علىٰ المشهد من ناحية وبلورة الفكرة في ذهن المتلقي من ناحية أخرىٰ.

ويرىٰ فاروق عبد المعطي أن وثوب العامية إلىٰ عبارات حقي الفصيحة يعود الىٰ إشفاقه علىٰ القارئ من التفاصح المفتعل في بعض المواضع وتجنبًا لما يمكن أن يلحق العبارة من برود وجفاء.(٢)

ففي سرده لقصة "قتيلة في حارة السكر والليمون" تقف علىٰ مثل جملة "... علشان الدفن مش ح نروح برّه"(٣) فهذه الجملة تعكس تظرفه بأن سكنىٰ القتيلة بالدور الأرضي بأحد المنازل الفقيرة سهّل أمر دفنها في مسكنها . وعن حمار الأجرة

(١) – يحي حقي ، الأديب صاحب القنديل،د فاروق عبد المعطي، سلسلة أعلام الأدباء ،– ص،٨٦.

(٢) – السابق، ص٩١.

(٣) – خليها علىٰ الله، ص٢٣.

وصبي المعلم خلفه يقول : ... ولكنه لم يكد ينقلب من مرمىٰ بصر المعلم بعد أن ودّعه بطرقعة من لسانه علىٰ سقف حلقه "تشك"(١)

ويكشف عن سر "قُفّة" الرجل الصعيدي التي كانت معه في القطار : ....فإذا بها تحتوي علىٰ جثة رجل مقطعة أربع تربع.(٢)

وقوله في غريق شاهده في الترعة: ... وإذا بجسد مكور "يقب ويغطس".

ولعل في حديث حقي عن أسرته ما يبرر ميله إلىٰ العامية في كتاباته : ....فأسرتي كان يشملها منذ وعيت روح من الديمقراطية لا أدري من أين جاءتها هي طبع وخلق... فما دخل بيتنا خادم إلا خالطنا مخالطة الأهل لم ننظر قط بأنفة إلىٰ القصاب والبقال وبائعة الجبن..." وفوق ذلك ما عرف عنه من صدق مع نفسه، فقد كان حريصًا أن يكون في كتاباته كما هو في حياته بين أهله وناسه.

ورغم ميل حقي إلىٰ الشعبية في لغته فقد كان حريصًا أن يضمنها كلمات قديمة بل لا نبالغ إذا وصفناها بالمهجورة ،رغبة منه في أن ينفض عنها غبار النسيان. فتقف عنده علىٰ مثل لفظة _ملتاث بمعنىٰ متلطخ أو مضطرب العقل، وفي لسان العرب جاءت اللُّوثة بمعنىٰ الحمق (٣)

ولفظة الطَفْل: يقال طَفَلت الشمس، أي مالت إلىٰ الغروب، وطَفَلَت الناقة أي رَبّت طفلها.

ولفظة أجوس: يقال جاس خلال الديار: أي دار فيها وتردد بينها بالإفساد.

(١) – خليها علىٰ الله ، ص١٠٤ .

(٢) – السابق، ص١٨٤ .

(٣) – ينظر لسان العرب مادة لوث

وعلىٰ هذا فقد استطاع حقي تطويع العربية للقص وإيجاد مستوىٰ آخر للغته أسماه النقاد فيما بعد بالعربية الثالثة و التي هي الوسيط بين العامية والفصحىٰ وهي عندي لغة المثقفين.(١)

وبعد فيرى البحث أن:

- اللغة عند الحكيم، كانت أكثر جزالة ، وأقوىٰ تعبيرا وأحسن تصويرا منها عند حقي، وهي تشبع نهم المثقف بما تضيفه إلىٰ قاموسه من مفردات وجمل فصيحة قوية ،ولا شك أن هذا مطلب هام.

- الحوار في يوميات نائب في الأرياف له ظهور واضح، فهو عنصر أساسي في الرواية بينما هو عند حقي شيء ثانوي، ولا غرو فقوام المذكرات السرد والوصف بينما قوام الرواية الحوار والتصوير.

- الجملة عند الحكيم أطول نسبيا عنها عند حقي.

- الوصف

الوصف من الوسائل التعبيرية الرئيسة في أي عمل فني، وهو إحدىٰ أدوات الكاتب في بناء قصصه، من خلاله يستطيع تصوير الشخصية من الخارج ورسم صورة لها من الداخل ومن خلاله أيضًا يستطيع تصوير البيئة التي تجري فيها الأحداث.

وقد استعان كل من الحكيم وحقي بالوصف والتحديد استعانة واسعة، ولم لا والعمل في سلك القضاء والنيابة عماده الوصف، فوصف الجاني والمجني عليه والمكان الذي وقعت فيه الجريمة وأداتها كلها أمور تتطلب دقة الوصف فالوصف إذن من أساسيات المهنة.

---

(١) - ألاعيب الذاكرة سليمان فياض، ص٥٠، الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة إصدارات خاصة ٤/ ١٦٤، ٢٠١٨م

ووصف الحكيم في يومياته ليس وصفًا جافًا جامدًا تجريديًا يعتمد علىٰ التقرير ونقل المشهد نقلًا ماديًا وحسب بل وصف فيه حركة وحياة لما يطلبه له من وسائل التخييل والتصوير التي تخرجه عن دائرة الوصف المجرد : ..... وعرجت علىٰ مخزن النيابة وهو عبارة عن حجرة تشبه دكان «ألف صنف»...(١)

أما لغة الوصف عند الحكيم فهي لغة سهلة واضحة لا تكلف فيها، لغة تشبع نهم المثقف لما فيها من تصوير أخاذ وتعبيرات جيدة، ويفهمها الأقل ثقافة فلا يحتاج معها إلىٰ معجم لتوضيح لفظ مبهم .

ونلاحظ مواءمة جيدة من الحكيم بين اللغة وشخصيات روايته ، فتراه ينوع في لغته حسب الشخصية. فحين يخاطب عبد المقصود أفندي رئيس القلم الجنائي يخاطبه بلغة فصيحة تناسب مكانته وثقافته : ..كاتب ضبط المركز كلمك في التليفون؟ فأجاب علىٰ الفور نعم ،طبعًا ودفاتر السجن مسددة جاهزة.. ومحضر التفتيش مكتوب. وكل شيء تمام، ولا باقي غير إمضاء سعادتك... والحكاية كلها قيمة ربع ساعة ونكون انتهينا من مأمورية تفتيش السجن.(٢)

ورغم إجادة الحكيم للغته فقد لوحظ عليه جرأة في استعمال بعض التعبيرات مثل وصفه ربنا- عز وجل- بأنه الخالق الأعظم (٣)وهذا لا يليق ومقام الألوهية، إذ إن صيغة أفعل التفضيل في "الأعظم" توهم وجود خالق غير الله سبحانه وتعالىٰ .كذلك وصفه الإنسان بأنه "الكائن النوراني الروحاني"(٤) ومعلوم أن الإنسان -

(١) - يوميات نائب في الأرياف، ص١١٢.

(٢) - السابق ، ص٨٤.

(٣) - السابق، ص١٢٨.

(٤) – يوميات نائب في الأرياف ص ١٢٨.

مع تكريم الله له- خلق من طين (١) . وكلمة الدَّغَلُ التي تطلق علىٰ :الشجرُ الكثيرُ المُلتَفُّ الذي يُتَوَارَىٰ فيه للخَتْل والغِيلَة ٠ الدَّغَلُ: الموضع يخاف فيه وهو يقصد به العشة أو السقيفة التي يأوي إليها الشيخ عصفور .ولفظة تجشم ،التي تعنىٰ التعرض للمخاطر و تأتي غالبا مضافة نجده أتىٰ بها غير مضافة .

- مذكرات حقي والقالب التعبيري

إذا كان الحكيم قد اقتضت طبيعة تجربته أن يعتمد الرواية قالبا ، فإن حقي اتخذ من الصورة القلمية أو اللوحة القلمية أو ما يعرف ب "البورتريه" (٢) قالبا مفضلا صبّ فيه أفكاره ، ولعل قدرة هذا القالب علىٰ الكشف عن الحالة الذهنية والنفسية والمزاجية لصاحب الصورة فوق ما تحمله من السمات المعنوية كان وراء ميل حقي إلىٰ توظيفه (٣) إضافة إلىٰ ما يسمح به هذا التكنيك من رسم الشخصية ووصفها خارجيا وداخليا ومحاورتها كان وراء ميل حقي إليه .

- اهتم حقي في صوره القلمية برسم السمات الخُلُقِية والخصال المعنوية للشخصية، فإذا تعرض للشكل الخارجي للشخصية فبالقدر الذي يخدم الفكرة، كما هو الحال في لوحاته " بيت الباشمهندس" و احتضار" والخمارة" والمعلمة صاحبة الفرن" وعاملها في مقاله "كسبت أول جناية وخسرت أول جنحة

---

(١) - السابق نفس الصفحة .

(٢) - الصورة القلمية : (Portrait) "فن من فنون الكتابة الصحافية، يستعرض التفاصيل الإنسانية المتعلقة برحلة شخص معين في الحياة، أو جوانب معينة من هذه الرحلة، وقد تتناول الصورة القلمية بعض الجوانب التاريخية، والحالية المتعلقة بمكان معين" . معجم المصطلحات الإعلامية، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ص٧٠، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

(٣) - مجلة فيلولوجي عدد ،٥٦، يونيو ٢٠١١م بحث بعنوان" الوصف في مقالات يحي حقي، دراسة لغوية في كتاب " خليها علىٰ الله" نعيم أمين طلبة .

– الصورة القلمية عند حقي نجحت في نقل إحساسه، لا أقول تجاه صاحب الصورة وحسب بل تجاه الحياة والأحياء من حوله ، فصوره مفعمة بالمشاعر والأحاسيس، تعكس آراءه ووجهات نظره في كل صورة ، آراء إنسان يتوق للسلام و الأمن ،يمتلئ قلبه حبا للخير، يواسي المكلوم ويخفف عن المهموم ، آراء إنسان خبر الحياة ،وعاني الكثير من التجارب ،تعامل مع أنماط مختلفة، فمن ثم تكونت لديه رؤية صحيحة واضحة . "...وبقيت إلىٰ أن ذهبت إلىٰ الصعيد في سن الثانية والعشرين لا أفرق بين الذرة والقمح في الحقل.. ماتت الطبيعة من حولنا ودفنت بين أكداس الكتب ...كانت القسوة هي القانون ،والغلظة هي العملة الدارجة، والدمامة هي محيطنا.....وظللت أحلم وأتمنىٰ أن يكون في ريف مصر ضيعة نظيفة خالية من القمل والبق والبعوض، براغيثها قليلة ... ماؤها غير عكر ، فلو كان بها مثل هذه الضيعة وكان لي ولد لفضلت ألف مرة أن أدفعه إليها وهو في سن الثامنة ليعيش بها إلىٰ أن يكتمل شبابه، فهذا أفضل من أن أسلمه لمدرسة يلقي فيها ما لقيته ، ومما يشجعني علىٰ هذه الأحلام والأماني أن المولىٰ سبحانه لم يرزقني ولدا.. حمدا لله وشكرا[1]

– والوصف في صور حقي معتمد اعتمادا رئيسا علىٰ الرؤية البصرية والمشاهدة الحقيقية ،و التي مكنه منها مخالطة الشخصية ومعايشتها،

- أهم الظواهر الأسلوبية في "خليها على الله"

رصدت الدراسة العديد من الظواهر الأسلوبية في مذكرات حقي "خليها علىٰ الله" علىٰ رأس هذه الظواهر والتي تعد من أهم خصائص حقي الكتابية:

(١) – خليها علىٰ الله، ص٤٦ .

- الجملة الاعتراضية

تعد الجملة الاعتراضية لازمة من لوازم أسلوب حقي، فقد أكثر من توظيفها كثرة تصل إلىٰ حد الظاهرة التعبيرية، فلا تكاد صحيفة من صحف الكتاب تخلو من جملة معترضة إن لم يكن جمل ،والجملة الاعتراضية عند حقي سيقت لأغراض مهمة في نفس الكاتب، فقد تأتي للتعبير عن بعض الأفكار التي تعن له في سياق الكلام ،وفي زخم هذه المعاني المتلاحقة التي تتولد وتنمو وتتآزر في بيان الفكرة العامة تكون الحاجة ملحة لها.

يقول في حادث سيارة مات فيه فلاح من منفلوط مع زوجته الجديدة والتي كان قد عقد عليها وأتىٰ بها إلىٰ بيته فماتا قبل وصولهما وكانت " مومسا "، : حاشاي أن أسأل : أكانت ستجتاز الامتحان في المستوىٰ الجديد بصحيفة بيضاء وتشارك صابرة فقر زوجها أم ستعود رِيمة _بجحود وضيق صدر وحسرة_ إلىٰ عادتها القديمة؟[١]

وقد تأتي الجملة المعترضة في السياق ليلمز بها حقي جانبا معينا في المجتمع. يقول مبينًا ظروف توظيفه : "... تعرضت لضغط شديد من أجل أن أرضىٰ بوظيفة في الحكومة لم يجدوا لي _بعد الوساطات والشفاعات_ إلا وظيفة معاون إدارة ". فالاعتراض ساقه حقي ليعكس أولًا نظرة المجتمع إلىٰ الوظيفة الميري وأنها الأمان في الحياة ، وثانيا ليبرز ذيوع الوساطة والمحسوبية في المجتمع وهذا ما أكده في موضع آخر.[٢]

(١) - خليها علىٰ الله، ص٢٤٠.

(٢) - السابق، ص٩٦

كما قد تأتي للتأكيد علىٰ مسلكه في الكتابة، وتبرئة نفسه مما قد يتهمه به البعض : وإن كانت الابتسامة تنقلب أحيانا إلىٰ سخرية، فلا بأس، فمن نفسي – وقبل أي إنسان آخر– قد سخرت...[١]

ويأتي بها حقي في سياق المشهد لتضفي عليه مزيدا من التوتر والرهبة والترقب ليكشف عن طبيعته، يقول مصورا مشهد الحكم علىٰ المسجونين سياسيا "... القاعة تغص حتىٰ تكاد تختنق _في هذه الساعة الرهيبة_ بالمثقفين، أصدقاء الساسة المثقفين يحتلون القاعة والممرات، لم يكد "كيرشو" ينطق بالحكم حتىٰ هبوا جميعًا يصرخون ويهللون ويصفقون ويهتفون، فرحًا وضحكًا ومرحًا..."[٢]

وقد تأتي الجملة الاعتراضية لتصحيح الفهم المغلوط لمعنىٰ خُلقي استقر في الوجدان الجماعي وهذا المعنىٰ ما يعرف بمساعدة الغير "لوجه الله"... فقد أقدم إنسان علىٰ قتل إنسان لا يعرفه، لا بدافع الانتقام أو الرغبة في السرقة، بل تطوعا محضا _لوجه الله_ لمساعدة صديق واقع في ورطة" فالجملة المعترضة في سياق التعجب لهذا الفهم المغلوط لمفهوم ما يسمىٰ "لوجه الله"[٣]

وقد يسوقها ليفرغ خلالها شحنات من الغيظ والحنق لمشهد ما. يقول معلقًا علىٰ مسلك زوجة علم زوجها بخيانتها ".. ومضىٰ يروي نكبته لعموم الناس... حتىٰ فوجئ ذات يوم بإعلان زوجته تطالبه أمام المحكمة الشرعية (هل لها من عين فتمثل أمام قاضي الشريعة؟) بدفع نفقة مسكن وملبس وطعام وأكدت أنها حُبْلىٰ – فوق البيعة– عندئذ ثار الرجل لشرفه[٤].

---

(١) – خليها علىٰ الله ، ص٦.

(٢) – السابق ، ص٣٤.

(٣) – السابق ص٢٤، ٢٥.

(٤) – السابق، ٩٤.

الأمثال

لا نبالغ إذا قلنا إن الأمثال الشعبية تعد علىٰ رأس الظواهر الأسلوبية في مذكرات حقي "خليها علىٰ الله"، فكثيرا ما يستدعي حقي المثل الشعبي في مذكراته لمغزىٰ معين،

والأمثال أصدق شيء يتحدث عن أخلاق الأمم وتفكيرها وعقلها[١]

ومن ثم فإن للأمثال أهمية كبيرة للفرد والمجتمع ،إذ هي موروث ثقافي وعصارة فكر ثقافات مختلفة، فوق ما لها من دور فاعل في استقباح الرذائل والإعلاء من شأن الفضائل.

ولعل كثرة استدعاء حقي للمثل ناجم من: كونه نبع من صميم الشعب ووجدانه، ذلك الشعب الذي أحبه حقي وحرص علىٰ ألا يخرج من جلبابه ما دام حيا،

وقد عرف كاتبنا في نفسه هذه الناحية فقال: ... ورثتُ عن أمي عن جدتها عددا لا بأس به من الحكم والأمثال.[٢]

وقد ساق حقي المثل في مذكراته لتوضيح فكرة، أو تقريب معنىٰ، أو دفاع عن رأي، أو استشهاد في موقف،. يقول معلقا علىٰ استهتار طبيب التشريح وعدم مراعاته حرمة الميت :.... فيهتك المخ ويتساقط علىٰ الأرض فيجمعه الحلاق بيده ويعيد تعبئته في الطاسة ويضعها مكانها من جديد "كُلّشن كان"[٣]

---

(١) – الحياة الادبية في العصر الجاهلي، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الطباعة المحمدية، ١٩٥٨م

(٢) – سبعون شمعة في حياة يحيىٰ حقي يوسف الشاروني ص١٠٦ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م.

(٣) – خليها علىٰ الله، ص١٨٨.

ويقول في صنف من" العمد" في الصعيد : " ....ليس عليه سمة الموظفين ولا سمة الأعيان بل سمة الأجراء المرتزقة، وبدل من أن تستنجد به فإنه هو الذي يستنجد بنا "جبتك يا عبد المعين تعين لقيتك يا عبد المعين تنعان " [١]وقس علىٰ ذلك العديد من الأمثال.

ومن اللافت حقا أن نجد حقي يعنون لمذكراته – محل الدراسة – بمثل منطوقه "خليها علىٰ الله" ذلك المثل الذي يضرب حين يشعر الفرد بالتذمر من الحال وصعوبة تحسنه، والمستقبل المظلم الذي يشغلنا والحاجز الذي يشعرنا بأن كل ما حولنا في طريقه إلىٰ التدهور[٢].

أكان حقي- وقت أن كتب مذكراته- يتجاوب مع أصداء الحسرة والألم من أبناء وطنه فيحاول أن يكفكف دمعهم ،ويخفف من ألمهم حين رأىٰ عدم تحسن الحال فدعاه إلىٰ مأدبة أدبية هي تلك اللوحات القلمية يعلله بها . وفي هذا التمثل لهذا الكم الهائل من الأمثال ما يشي بخوف حقي علىٰ هذا التراث من الاندثار فاتجه إلىٰ إحيائه من جديد.

وقد نقل حقي عن أهل منفلوط بعض الجمل التي يمكن أن تجري مجرىٰ المثل من ذلك تكراره في مذكراته جملة "شغل الحكومة كده ". فقد رسخ في الوجدان الجماعي عند أهل الصعيد الاعتقاد بأن الحكومة لا تفهمه وأن الموظفين أغراب أجراء لا يهمهم إلا قبض مرتبهم، فقلوبهم ليست معه فقد تكرر ذكر هذه الجملة في ص١٦٥،١٦٢، ١٩٦ من مذكراته.

(١) – منها ص٢٤٠،٢٢٣،٢١٧،٢٠٤،١٩٢،٦٣، وغيرها الكثير.

(٢) – جريدة الرياض السعودية مقال" مشوار الرأي خليها علىٰ الله" العدد ١٤٠٨٦، ١٧ يناير ٢٠٠٧ م

فالأمثال في "خليها علىٰ الله" أثْرت الموقف بما تحمله من دلالات هادفة وإيحاءات مرتبطة بالأعراف والتقاليد.

ومن الظواهر الملفتة للنظر في الكتاب -أيضا - ما يطلق عليه "حب الاستطلاع" فلدىٰ حقي حب استطلاع عجيب ، فما أن يسمع عن شيء فيه جانب مستغرب إلا و ينجذب نحوه كُليّة ،محاولا الوقوف عليه ،متسللا لمعرفة أسراره، والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة منها :

- سعيه وهو بمنفلوط للوصول الىٰ أسرة مصطفىٰ لطفي المنفلوطي .

- سعيه في الوصول إلىٰ ما تعرف بحارة "السكر والليمون" حين سمع عنها لمعرفة السر وراء هذه التسمية .

- سعيه - في الإسكندرية - لمقابلة من سمع أنه قد "لف الأرض سبع مرات "وعاد وفي حقيبته صور عديدة فسأل عنه والتقىٰ به :..... ..... فأراني صورته وهو واقف أمام جدار ولا شيء آخر في الصورة - وقال :أنا في هونج كونج، وصورة أخرىٰ له أمام جدار آخر وقال : أنا في بومباي، وصورة ثالثة أمام جدار و قال لي :أنا في سان فرانسسكو، و نظرت إلىٰ عينيه فوجدتهما سليمتين قويتين ،فحمدت الله أنني أعمش. (١)

- تتبعه لمعرفة السر وراء تسمية أكبر مساجد منفلوط بمسجد" الست ظريفة(٢) والعجيب أن حقي قد تحقق له كل مسعاه .

وحب الاستطلاع عند حقي قد أفادنا - نحن القراء- في أن أمدنا بمعارف لا شك في طرافتها ،ولولا نهمه المعرفي لما نمىٰ إلىٰ عقولنا علم بها ، فهي عند حقي ذات جانب إيجابي وإن أرهقه التقصي ، والعجيب أن حقي عرف هذا الجانب في نفسه:

---

(١) - خليها علىٰ الله ، ص٧٥ .

(٢) - السابق ص٢٣٢ .

... وللفضوليين أمثالي أسئلة سخيفة تقلقهم ولا ينسونها إلا إذا جدت لهم أسئلة أسخف منها [١]

وحب الاستطلاع يعد دافعا رئيسا وراء التطور المعرفي والتعليم والاكتشاف العلمي ،وهو يقود بلا شك إلىٰ المعرفة ، وهو يتعلق بالوعي والانفتاح والتحقق من الأشياء والخبرة والتفاعل، كما أنه دافع أقرب في خصائصه إلىٰ الدافع المعرفي ذاته وهذا الدافع ينزع بالفرد إلىٰ استطلاع الشيء أو الموقف والخبرات الجديدة والرغبة في البحث والفحص، واستكشاف العالم المحيط ،كما أنه يعتمد علىٰ جدة المثير، ويتوقف بانتهائه أي تحوله إلىٰ الألفة [٢]

النكتة عند حقي

من الظواهر الأسلوبية في مذكرات حقي خليها علىٰ الله، كثرة إيراده للنكات والنادرة، ولا يختلف اثنان علىٰ دور هذه النكات في إضفاء الحركة والحياة علىٰ الأسلوب من ناحية، وفي الحد من الرتابة التي قد تصيب القارئ بالملل من ناحية أخرىٰ ، فتراه يكثر من رواية النادرة التي لا تزال في بؤرة شعوره رغم تعاقب السنين عليها، فيراها جديرة بالرواية، فنحن نقرأ كثيرا عن المصادفة وأثرها في تحريك الأحداث في القصة، والمصادفة – التي سيروي حقي ملخصها– تلعب دورا مهما في العقدة ومن ثم الحل. وملخص هذه القصة: ما يحكىٰ من أن جنديا كان عائدًا في القطار إلىٰ نقطته بعد أن سلم متهمًا للمركز وجاءت جلسته بجانب فلاح من الصعيد قد وضع تحت مقعده قفة كبيرة مغطاة بلحاف، وأخذ الجندي في إدارة جوز من "الكلبشات "المفتوحة بعد أن حلتها النقطة من يد مجرم، ودار حوار بين

(١) – خليها علىٰ الله ص٢٣٢ .

(٢)– الموهبة العقلية من منظور علم نفس الشخصية ، سفيان صائب المعاضيدي ص٨٠ طبعة ٢٠١٤م.

الجندي وهذا الفلاح الذي أبدىٰ تعجبه من صنعها وإمكان غلقها وفتحها، ول"﴿ لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولًا ﴾ [1] عرض الجندي علىٰ الفلاح لو جربها علىٰ يديه - إن أحب - علىٰ أن تبقىٰ مفتوحة ، وفي غمضة عين وبحركة غير محسوبة قفلت "الكلبشات" علىٰ يد الفلاح وارتاع الجندي لموقفه إذ ينبغي أن يسلم "الكلبشات" مفتوحة وهي الآن أصبحت مغلقة في يد شخص لابد إذن من الرجوع إلىٰ النقطة ثانية لفتحها ونزل الجندي والفلاح في أقرب محطة معهما القفة، ليتضح أن في القفة جثة مقطعة أجزاء، واعترف الفلاح بالجريمة، وأنه كان ينوي ترك القفة في القطار وينزل في أحد المحطات كي لا يعلم الجاني.

ونادرة أخرىٰ حدثت معه لرجل من أهل الصعيد تقدم بطلب لفتح محل بقالة ، فطلب منه حقي أن يضع علىٰ طلبه ورقة لصق فئة(٣٠)مليم، لم يفهم الرجل مراد الحكومة بورقة اللصق، ولم يدر بخلده أنها ورقة "البوستة" أو الطابع فئة الثلاثين مليما، إذ بعد مشورة من لا علم له، وضع علىٰ طلبه ورقة لصق "ويلكوكس" من الصيدلية والتي تستخدم لتخفيف آلام الظهر والركبة.[2]

ولحقي ولع برواية كثير من الطرف والنوادر فقد روىٰ عن بعض ما عرفه من حقائق. من ذلك الوقوف علىٰ السّر وراء تسمية بعض الحارات بأسمائها، التي تكشف عن قدرة المصريين علىٰ الدعابة، بل والسخرية عن طريق القلب والإبدال في الكلمة : أذكر أن أهل القاهرة كانوا ينشدون في أوائل الحرب العالمية الأولىٰ أغنية غريبة مطلعها هكذا

كنت فين امبارح

---

(١)- الأنفال .آية (٤٢) .

(٢) - خليها علىٰ الله، ص١٦٨، وينظر كذلك مقال دجالون، ١٤٧: ١٥٤.

أيا.... شن... ورن

كنت باسكر وبا حشش

وبا حمص بُن

وظللت مدة لا أفهم مطلع هذه الأغنية ،وأخيرًا أدركت أنها تقطيع لاسم "كتشنر" العميد البريطاني وقائد الجيش.. كت..شن." وأن الأغنية سخرية منه[١].

كذلك الشأن مع "حارة اللي كفر"[٢]

الحكيم والتصوير

مال الحكيم إلىٰ التصوير في صياغة تجربته " يوميات نائب في الأرياف" فقد عبر به عن الكثير من القضايا والعواطف ،وفي التعبير عن الحالات النفسية لشخصيات الرواية، فأسلوبه أسلوب تصويري بالدرجة الأولىٰ، يميل فيه إلىٰ إعطاء المتلقي الفكرة مصورة حتىٰ لما يمكن تجسيمه من العواطف والأفكار .

ويوميات نائب في الأرياف بما أنها تعتمد علىٰ الموقع الزماني والمكاني معا ،فالكلمة فيها شكلت بحسن موقعها وجمال وقعها صورة أدبية أخاذة حافلة بكثير من المعاني والمشاعر والخواطر والعواطف المتدفقة. [٣] فوق ما أمتعت القارئ بلوحات تصويرية تضيء بومضة سريعة معنىٰ واحدا كالفرح والحزن أو الاستغراق في التفكير إلىٰ غير ذلك،

يقول مصورا مشهدا من مشاهد القلق الذي أطار النوم من عينه إثر مبيت ريم في بيت المأمور: ...فجأة خطر لي أن أرتدي ثيابي وأن أنزل إلىٰ الطريق وأدور حول

(١) – خليها علىٰ الله، ص٢٨.

(٢) – خليها علىٰ الله وكذلك ص١١٨، عن الشيخ علي الليثي، وأيضًا ص١١٧ شاهد الإثبات الوحيد.

(٣) قمم أدبية ٢٤٨،٢٤٧

منزل المأمور ما هذا الجنون؟ أنا أفعل ذلك، وإذا ضبطني خفير الدرك إنه يعرف شخصي فيعتذر ولكنه سيخبر الناس ويشيع الخبر وتكون الفضيحة، لا مفر إذن من انتظار الصباح وما يأتي به(١).

فرغم أن هذه اللوحة اعتمدت علىٰ الحقيقة فقد عكست مشاعر نفس تنتابها الشكوك وهواجس النفس، تعيش القلق وتتجرع مرارة الحيرة والاضطراب.

ويصور استعصاء الكتابة عليه أحيانا : إن القلم لنعمة لأمثالنا ممن كتبت عليهم الوحدة، ولكن القلم كالجواد ينطلق أحيانا من تلقاء نفسه كالطائر المرح ،وأحيانا يحرن ويثبت علىٰ قدميه ويأبىٰ أن يتقدم كأن في طريقه أفعىٰ رافعة الرأس ،وهو الساعة يهتز في يدي ويرقص ولا يطيعني كأن شيئا يخيفه أو يقصيه عن مروج الأحلام(٢).

والصورة الأدبية في الرواية ذات قيمة جمالية ،وجمالها يكمن في حياة مدلولاتها حتىٰ الآن (٣)

فالرواية ترمي إلىٰ كثير من المعاني والأفكار جديرة بالتملّي، وإن لم يغب عنصر التسلية عن فكر الكاتب، التي من أهمها – كما سبق أن أشرنا- النقد لطبيعة الأحكام الذي تنزل علىٰ رأس الريفيين البسطاء- كالمطر- والذين يجهلون الأسباب التي تلزمهم عليهم الغرامة وتوقعهم في جناية أو جنحة، حقه في التثقيف بما له وما عليه حتىٰ لا يقع تحت طائلة القانون، تسليط الضوء علىٰ وضع الريف المصري وحرمانه من كثير من حقوقه ،كحقه في شرب الماء النظيف، حقه في

(١) يوميات نائب في الأرياف ٤١

(٢) السابق ٧١

(٣) النقد الأدبي الحديث ص٦٣٥.

الرعاية الصحية المناسبة، وحقه في توفير العمل المناسب للعيش الكريم ،حقه في إبداء رأيه في الانتخابات واحترامه وغيرها الكثير.

– لدىٰ الحكيم ولع بالتشبيه ، ولعل وقوفه علىٰ دوره في تقريب الصورة ونقلها بالحجم والصوت والحركة كان وراء إكثاره منه ،ولا نبالغ إذا قلنا إن كل صفحة من صفحات الرواية قد حوت تشبيهين علىٰ الأقل .وتشبيهات الحكيم تعكس منابع ثقافته ،فكثرة قراءاته في الروايات والمسرحيات الأجنبية وتمثله لها خاصة الفرنسية رفدته بكثير من هذه الصور : لقد قرر توفيق الحكيم أن يدرس الثقافة الإغريقية التي ولدت أساتذة المسرح مثل سوفو كليس و هيمور وقليدس وأشيل وأرسطوفان ". [١]

"وعمرت بقطع من الجبن العتيق مصايد الفيران الثلاث ونصبتها حول سريري كما تنصب الألغام الواقية حول سفينة من سفن الصليب الأحمر [٢]"

وكان لتنقله– أثناء عمله – بين المحافظات ومشاهداته الحية دور في تنوع تشبيهاته وتلونها أيضا: فنزلنا جميعا وامتلأ بنا القارب كأننا غرقىٰ في زورق النجاة أو "أزيار" من الفخار في مركب بالصعيد [٣]": ".....وهذه الفتاة فيما يخيل إلي ذات نفس كدغل البوص والقصب.. [٤]"

– وكثيرا ما عكست تشبيهاته دلالاته وانطباعاته عن بعض شخصيات الرواية، كما هو الحال مع أحد العمد: ولم يكد حضرة العمدة يوقع بإمضائه الذي يضاهي نبش الدجاج تحت أقواله. [٥]

---

(١) قمم أدبية ص٢٤٠.

(٢) يوميات نائب في الأرياف ،ص، ١٢.

(٣) السابق، ص ٢٤.

(٤)السابق ، ص ٢٦.

(٥)السابق ص٢١.

– كما تعكس حالات شعورية ونفسية معينة . : ...اسمك: "ريم لفظته في صوت...هز نفسي كما تهز الوتر أنامل رقيقة. . [١]

وكثير من تشبيهات الحكيم ضمنية يفهمها القارئ من السياق، فالمرأة في منفلوط مخلوق جاف لا فرق بينها هناك وبين الرجل [٢]

: ووكيل النيابة إن هو إلا حاكم صغير في مملكة كبيرة إذا فهم كل شيء في هذه المملكة. [٣]

وكثير منها شكّلتها المهنة . يقول في امرأة جاءت للإدلاء بشهادتها: فدنت من أقرب الفتيان إليها ونظرت إليه بعينها العمشاء نظرة العرضحالجي "الأضبش" إلىٰ عريضة يرفعها في يده حتىٰ تمس أنفه .[٤]

وتجدر الإشارة إلىٰ أن كثيرا من تشبيهات الحكيم مبتكرة [٥] ،كما أنها دقيقة في مجملها تدل علىٰ دراية وفطنة وسرعة التقاط الصور.

الاستعارة

استعارات الحكيم في معظمها تشخصية، ولا شك أن ميله إلىٰ هذا النوع من الاستعارة ،هو إضفاء روح الحياة والحركة علىٰ المشهد ومن ثم واقعيته وحيويته ، وهذا النوع من الاستعارة يناسب الأعمال الدرامية :"... وهناك الجريمة الفطرية تخرج متدثرة في عباءتها حاملة هراوتها أو فأسها أو بندقيتها لتسفك دم رجل

(١)يوميات نائب في الأرياف يوميات نائب في الأرياف ص٢٥

(٢) السابق ص١٤١ .

(٣)السابق ص١١٠ .

(٤) السابق ص١٠٧ .

(٥): الابتكار مصطلح يشير إلىٰ قدرة الشاعر التوصل إلىٰ شيء جديد لم يُسبق إليه وهو يعني في جانب من جوانبه قدرة الشاعر علىٰ تكوين تشبيهات أو مجازات جديدة أو ما يسمونه بالمعنىٰ المبتكر أو المخترع أو النادر أو المبتدع الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب – جابر عصفور ص١١١ : المركز الثقافي العربي ١٩٩٢م

ضعيف انتقامًا لعرض أُهين".[١] "... وانطلقت السيارتان بين المزارع وقد نامت الطبيعة وسكنت الأصوات ".[٢]

– واستعاراته في مجملها ماهي إلا انعكاسات لمرأىٰ الأشياء والأشخاص علىٰ نفسه فيصف دوار العمدة وصفا لا يخلو من السخرية والرثاء لحال هؤلاء العُمَد. "وجلسنا في (المَنْظَرة) علىٰ فرشٍ من قطيفة ذهب وبرها ولونها[٣]، ووضع الكاتب أوراقه علىٰ خوان أعرج تعلوه رخامة مكسورة.

: .... فاحتج المحامي ورفع عقيرته وقد بدا ليّ أن كل همه أن يجلجل صوته في الجلسة،[٤]

ومن تشخيصاته الطريفة قوله وقد اجتهدوا في طلب النقطة تلفونيا: " ..... ولكن النقطة قد غضت طرفها الناعس عنا ولم تكلف نفسها عناء الرد علينا[٥]"

وإذا كان للاستعارة هذا الدور الحيوي في يوميات الحكيم ،فإن دور الكناية لا يقل عنها وإن كان أقل دورانا في الرواية، ومن كناياته:.. انتهت الجلسة عند العصر وقد خرجت منها محطم الأعصاب.[٦] كناية عن الحزن والكآبة التي شعر بهما.

هذا عن الصورة الجزئية في يوميات الحكيم فإذا يممنا وجهتنا نحو الصورة عند حقي فنلاحظ أنه قد أكثر من الصورة البيانية لتوضيح فكرته، وتأكيدها إمعانا في

(١) – يوميات نائب في الأرياف ص ١٥.

(٢) – السابق، ص١٥.

(٣) – السابق ، ص١٩.

(٤) – السابق، ص ٣٨.

(٥) – السابق، ص ١٠٢.

(٦) – السابق، ص ٣٩.

تجليتها، لذا فقد تتوالىٰ عنده كل صور البيان في الفقرة الواحدة حول مشبه واحد. لتضفي علىٰ الصورة الكلية مزيدا من الإيضاح والحيوية أيضًا.

فعن سعد زغلول وشدة شغف جمهوره بخطبه، وحرصهم علىٰ سماعها، وكيف كان موقفهم حين اعتذر عن الخطابة في أحد اللقاءات ،وكيف نزل سعد لرغبتهم! : صورته الباقية كخطيب تعود إلىٰ يوم في سرادق كبير كأنه يوم الحشر.. رأيته يشير إلىٰ رقبته يلفها بكوفية... وبدأ كلامه بصوت خافت متقطع، رأسه كأنها مغروزة في جسم بلا رقبة من أثر الانحناء، وشيئا فشيئا دبت فيه حركة _يا لها من حركة_ وحماس أي حماس!.. انتصب الرأس كأنه تمثال حيّ للنبل والجبروت والاعتداد بالنفس ذراعاه الطويلان – كذراعي الغوريلا – يضمان إلىٰ صدره العريض أماني الدنيا ،ويقصيان عنه في حركة واحدة كل خبائثها، ترتجف القلوب حين يشير بسبابته متوعدّا رَفَعَنا وهبط بنا.. أذاقنا السعادة والحسرة والأمل... أربع ساعات كاملة لا ينقطع سحره ، وخرجت سعيدا مخدر الجسم متعبا وراسي دايخة.[1]

فالقطعة تتآزر وتتناغم فيها الصور الجزئية بتشبيهاتها واستعاراتها لتنقل هذا المشهد الحيوي برمته كأنه ماثل أمامنا تتقراه أيدينا وتراه أعيننا وتسمعه آذاننا، فقد عكس التشبيه " رأسه كأنها مغروزة في جسم بلا رقبة " مدىٰ الإعياء الذي كان فيه سعد ذلك اليوم، وشيئا فشيئا دبت فيه حركة ،كناية عن هذا الحماس الذي يدفعه الإيمان بالقضية الوطنية ،ذلك الحماس الذي كان نقطة انطلاق فحوله من السكون إلىٰ الحركة، ثم صور رأسه وما تحويه من فكر نبيل وفهم ثاقب بالتمثال، وليس أي تمثال بل هو تمثال حي تتجسد فيه كل معاني النبل والجبروت.

(١) – خليها علىٰ الله، ص١٣ .

فهي صورة نبيلة حية أخاذة وتعكس الكناية : ترتجف القلوب حين يشير بسبابته متوعدّا " أثر كلامه علىٰ النفس والقلب معًا. كما عكست الاستعارة في الجملة قبل الأخيرة : أذاقنا السعادة والحسرة : السعادة بحماس الغيورين وشجاعتهم وبتاريخنا الحافل بالبطولات ، وأمل في مستقبل حافل بالحرية والكرامة إذا ما أخذنا بأسبابهما. والحسرة علىٰ ما آل إليه حالنا حين رضينا بالهوان _ وعلىٰ هذا فقد نجح حقي في رسم صورة لسعد زغلول رغم انتقائه لبعض معالمها ،وهذا يأخذ بيد القارئ لالتقاط الجوانب الأخرىٰ للشخصية من خلال حركاتها ،طول نَفَسها، شدة حماستها، وإيمانها بمبادئها.

ويبدو أن طبيعة حقي المرحة الفكهة قد انتقلت عدواها إلىٰ صوره ،فمن يمعن في صوره البيانية يقف علىٰ سمات هذا الكاتب العبقري، ولعل وقوف حقي علىٰ ما يستهوي القارئ من ضرورة المراوحة بين الجد والهزل كان وراء اختياره لصوره : أسير في هذه المذكرات - كما سرتُ في حياتي- أفرد الشراع وأقول لزورقي والبحر المخيف أمامه " خليها علىٰ الله ".[١]

ويقول عن قلة عناية أحد المهندسين بمنفلوط بنظافة منزله :... أصبح المنزل بعد قليل- فما بالك بعد ثلاث سنوات من المسارح الحُرّة للفيران والعناكب والهوام والغبار.[٢]

ويكثر حقي من الاستعارات التشخيصية في هذه المذكرات. ولعل رغبته في التحديد والتدقيق دفعته إلىٰ التشخيص، لترسيخ الصورة في النفس: إنني عاتب علىٰ

(١) - خليها علىٰ الله، ص٦.

(٢) - نفس المرجع ص٢٠٠.

مدرسة الحقوق... كنت أحسب أنها ستغسل أرواحنا وتبعثنا خلقًا من جديد، وتضرب الأمثلة الباقية في توقير العلم وخدمته لوجه الله.(١)

ومن ذلك أيضًا قوله... أهو انتقام جديد للقدر من وراء القبر.(٢)

وأسهمت الاستعارة التشخيصية عند حقي في إيحائية الصورة، وعلىٰ كل، فصور حقي في مجملها، حية مصورة بما أضفاه عليها من حسه وشعوره وخياله الخصب ،مما يجعل المتلقي يتأثر بالصورة وينعكس مدلولها علىٰ مخيلته ،يعكس لك مشهدا لبعض المتهمين سياسيا وهم في قفص الاتهام يظهرون قلة اهتمامهم بما يدور حولهم : ماهر والنقراشي جنبًا إلىٰ جنب كأنهما عاشقان في خلوة لا يكفان عن التحدث والابتسام كأن الأمر لا يعنيهما. ويقول عن آخر في نفس القفص : حسن كامل الشيشيني صامت صمت القبور لعله يتلو أورادًا في سرّه فالتشبيهان يعكسان تفاوت المتهمين في الحالة النفسانية بين الحزن واللامبالاة.

– تشبيهاته تعكس رأيه في كثير من القضايا فهي تلخص الموقف وتغني عن كثير من الكلام : يقول عن التعليم في عهده : تعليم كسلق البيض وتدافع كتدافع القطيع إلىٰ المجزر، وحشو للدماغ حتىٰ تكاد تنفجر بالتفاصيل والقشور.(٣)

والصورة عند حقي تشهد بموهبة فذة ، فيكفي أن يُحْكىٰ له المشهد أو يشاهده بنفسه فينفث فيه من سحر بيانه، فيحيا أمامك كأنه إنسان ذو روح وجسد.

ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن تشبيهات حقي وليدة فكره وعصارة ثقافات متعددة، وكثير منها مخترع كما عند الحكيم، وهذا إن دل فإنما يدل علىٰ أن لحقي شخصيته المستقلة التي استطاعت أن تجعل له بصمة بين كتاب جيله.

---

(١) – خليها علىٰ الله ، ص٤٥.

(٢) – السابق . ص١٧.

(٣) – السابق ، ص١١.

وكان لكثرة مشاهداته وسفراته وما انعكس خلالها علىٰ مرأة نفسه إسهامات هامة في تشكيل صوره – التي تؤكد كما وضح البحث– واقعية حقي وتوقه إلىٰ أن يكون للبيئة المصرية حضور في كتاباته يقول مبينًا نظرة مدرسي مدرسة الحقوق لطلابها :... كأنهم يقولون التلميذ الكسول حمار لا يأبه حتىٰ لوقع العصا ،والتلميذ المجد حصان سباق يشق طريقه جريًا بغير حاجة لمهماز، وضعتُ أنا كالبغل بين الإثنين.(١)

ويقول عن كثرة عدد القضايا ومن ثم ارتفاعها علىٰ منصة القضاء أمام القاضي الموسوس : وعلىٰ يمين القاضي – تل مرتفع كبرج بيزا – من الملفات بين البدين والنحيف. (٢)

وما أجمل حقي حين يتخذ من الكلمة التي رسخت في الوجدان الجماعي بمعنىٰ معين مادة للتشبيه، يقول بعد أن أكل البصل الأحمر المستدير مع أهل منفلوط : ... فوجدت نفس سيئ الخلق ، شرسا ، جحودا،إذا كان هذا حالي بعد أكلة واحدة فما بالك برجال – كل منهم كالشحط – لا يأكلون إلا هذا الطعام في أغلب الأيام.(٣)

(١) – خليها علىٰ الله ، ص١٠.

(٢) – السابق ، ص٨٧. – برج بيزا بإيطاليا بمدينة بيزا، استغرق تشييده قرنين من الزمان من ١١٧٢: ١٣٧٢م، بدأ البرج يميل ناحية الجنوب خلال تشييده، وعندما أضيفت غرفة جرس الكاتدرائية أعلىٰ المبنىٰ، وضعت في وضع عمودي أن توقف ميل بقية البرج، ويرجع سبب ميوله إلىٰ طبيعة الموقع ذات التربة غير المتجانسة التي لم تستطع أن ترفع الأحمال الناتجة عن استخدام الرخام الثقيل. ينظر عالم الأخطاء د/ باسل يونس الخياط ٢٠٢١م، ص٤٧، دار الكتب العلمية ببيروت_ لبنان.

(٣) – السابق ، ص١٧٥.

وله من "اللوحات الأدبية" ما يكشف عن دقة ملاحظته، تلك الدقة التي حرص علىٰ أن يجعلها واقعًا عمليا ومن ثم الدعوة إليها، لوحات شكّلها التأمل ، وقد كان هذا المنزع ناجحًا في نقل الكثير من المشاهد والصور نقلًا حيا ،رسمه وجدان الشاعر قبل عقله، كما في لوحته "وفاء النيل ":..... الفلاح وجاموسته تشرب من بواقي ماء آسن متخلف في حفر صغيرة من أيام فيضان سابق، كوم الحبوب في داره يهبط شيئًا فشيئًا.. هل ستصل آخر حبة منه بأول حبة لن تنبتها إلا هذه الأرض التي جثت علىٰ ركبتها وأحنت رأسها وتهيأت للموت ،يلف الكون كله أهله وطينه وحيوانه – جو غريب من التوتر ينفذ إلىٰ النفوس علىٰ غفلة منها ،ولكنه توتر رهيب لا تفلح الضجة مهما علت أن تفسد غلالة من الصمت قد حطت علىٰ الوادىٰ،لو كان الكون شخصا لرأيته واقفا يقلب وجهه في السماء ويتصنت يمنة ويسرة.... لم أر طول إقامتي في الصعيد شيئًا مثل هذا السرساب الضئيل من الماء يملأ روحي حتىٰ كاد يسحقها بشعور مختلط من الرهبة والفوز، واليأس والنجدة بل الموت والحياة تجمعهما لحظة واحدة.(١)

وبعد فالتصوير يعد قاسما مشتركا بين الكاتبين، وإن مال الحكيم أكثر إلىٰ التشخيص ، فالتشخيص هو أسلوب الحكيم المفضل، وقد أجاد الكاتبان في تأليف صورهما بما يعكس الفكرة الرابضة في صدرهما.

– من أهم سمات رواية الحكيم يوميات نائب في الأرياف ولوحات حقي في مذكراته ،الوضوح والبعد عن التكلف والغموض، وهذا الوضوح مبعثه، وضوح الرؤية عند كلا الكاتبين وصدق التجربة وإشراق الفكرة ،وقوة العاطفة ووضوحها معا ،فلا نقف عندهما علىٰ تعقيد في العبارة، أو غموض في التركيب .

(١) – خليها علىٰ الله ، ص٢٥٦.

اللون ودلالته عند الكاتبين

أجاد كل من الحكيم وحقي في توظيف اللون في الصورة، ذلك اللون الذي يرمز إلي شيء متعارف عليه لدىٰ أهل التخصص ، وهذا الرمز يدل علىٰ مدىٰ انشغال الكاتب بالفكرة، ورغبته في التعبير عنها بصورة مغلفة تحتاج إلىٰ إعمال فكر حتىٰ يستطيع القارئ أن يقف علىٰ مراد الكاتب.

وقد لوحظ كثرة استخدام الحكيم وحقي للون "الأزرق" ولعل كثرة ورود هذا اللون عند الكاتبين دلالته علىٰ الألم إذ إن اللون الأزرق يرتبط تقليديا بالخوف والاختناق والعطش".[١]

وجاء اللون الأزرق عند الحكيم ليعكس الحزن والألم والحرقة، فالنسوة اللائي تجمعن أمام باب المستشفىٰ تبدو عليهن مظاهر الأسىٰ و الفقد :... وحانت منىٰ التفاتة إلىٰ باب المستشفىٰ الكبير ورأيت العسكري المكلف بالحراسة يطرد زرافات النساء المجتمعات في ثيابهن السود و « طرحهن » الزرق وأصواتهن التي يقطعها عويل القلق . فعلمت أنه سيلقىٰ إليهن بجثة بعد قليل .[٢]

وهذا الكهل الفقير المتهم بسرقة كوز الذرة كان قد برز من صدره "شعر أزرق أشيب كأنه شعر ضبعة مسنة "[٣]

كما كثر استخدام حقي للون "الأزرق" خاصة عند حديثه عن الصعيد وأهله.

---

(١) – الأدب الرقمي بين ضبابية العولمة وتداعيات المشهد الثقافي، رؤية استشراقية حافظ محمد شمري، ص٩٤، طبع مركز الكتاب الأكاديمي ٢٠٢٠م نقلًا عن القصيدة التفاعلية الرقمية، ومقاربات في البنية والدلالة تباريح رقمية لسيرة بعضها أزرق أنموذجًا، فطيمة ميمي، ص٦٩_٩٠.

(٢) – يوميات نائب في الارياف ص٤٧.

(٣) – السابق ، ص ٥٥.

فاعتماد حقي علىٰ هذا اللون فيه دلالة علىٰ شدة معاناة أهل الصعيد، إذ ينتابهم حالتان من التوتر والفوز واليأس والنجدة. يقول عن شباب منفلوط المسكين المطلوب للفرز : ... ذلك أن طبيب القرعة سيفحصهم وهم عُري وليس لديه وقت يضيعه حتىٰ يخلع الفلاح أمامه جلبابه الأزرق وما أسهل خلعه فليس لديه غيره.(١)

ويزيد استياؤه لمرأىٰ هؤلاء الشباب في هذا المشهد المزري الذي يستوجب الشفقة : ... انقلب الشّعْر الذي خلقه الله لهم زينة إلىٰ دهان قبيح لطخ رؤوسهم ،تتخلله بقع رمادية وزرقاء كأنها بطحات مطرقة ملوثة بروث البهائم.(٢)

وإذا تأملنا هذه النماذج نجد أنها جاءت في موضع الألم والحسرة، فالمرأة التي ماتت في حادث انقلاب سيارة كانت تلبس ثوبا أزرق، والشباب المطلوبون للفرز يلبسون جلبابا أزرق ليس تحته شيء ، وهذا بلا شك مما يؤلم نفسه ويحزنها، والمقالة من أولها إلىٰ آخرها تنطق بالألم والحسرة والحزن الذي خيم علىٰ منفلوط في ذلك اليوم _حزن أمهات هؤلاء الشباب لاستدعاء أولادهم ،حزن الشباب أنفسهم لسوء معاملتهم من قبل طبيب الفرز، حزن حقي نفسه الذي كربه وأحزنه مرآهم علىٰ هذه الحالة : سيظل الفلاح هكذا عاريًا مقرفصًا علىٰ الأرض ساعات طويلة تحت الشمس إلىٰ أن يأتي عليه الدور، لم أر أحدًا يكسب فيهم ثوابًا ويسقيهم ويدور بينهم بقربة أو قلة أو كوز.(٣)

كما جاء اللون الأسود عند الحكيم بكثرة، فقد رأي العسكري يطرد زرافات من النساء المجتمعات أمام المستشفىٰ بثيابهن السود وطرحهن الزرق دلالة علىٰ

(١) – خليها علىٰ الله، ص٢٥١.

(٢) – السابق، ص٢٥٢.

(٣) – السابق نفس الصفحة.

الحزن والأسىٰ إذ سيلقىٰ عليهن بجثة بعد قليل [١] ومباني هؤلاء الفلاحين في لونها الأغبر الأسمر" لون الطين والسماء وفضلات البهائم"[٢] ليعكس هذه الكآبة التي خيمت علىٰ وكيل النيابة ، كما يعكس حالة الاغتراب التي عاشها في هذا الريف ،التي من أبرز مظاهرها عنده سريان روح الضجر والملل والوحشة والتبرم . فالرجل والمرأة في صعيد مصر في لونهم الأسمر " كتلك الأرض السوداء التي يعيشان عليها .[٣]

فاللون الأسود رمز الحزن والكآبة وخيبة الأمل، لذا نجد الجاهلي يصفون الأكباد الحاقدة بالسواد. يقول الأعشىٰ. [٤]

فمـــا أجشـــمتُ مـــن إتيـــان قـــوم هـــم الأعـــداء فالأكبـــاد ســـود

الشخصية في عمل الكاتبين

لعبت الشخصية في رواية يوميات نائب في الأرياف دورًا عظيمًا، انعكس هذا الدور علىٰ الشخصية المحورية "النائب " فبين انعكاسها علىٰ نفسه.

وقد ورد في هذه الرواية أكثر من عشر شخصيات بأسمائهم وبغير أسمائهم، منها: "دسوقي" خادم وكيل النيابة، قمر الدولة علوان "المضروب و"ريم، و"سعيد أفندي كاتب التحقيق"، ومنها أيضًا: وكيل النيابة، ومساعده والقاضي الموسوس والقاضي السريع، والمأمور وقزمان أفندي المحضر ...وغيرهم.

(١) – خليها علىٰ الله، ٤٧.

(٢) – يوميات نائب في الأرياف. ٥١.

(٣) السابق ١٤٠.

(٤)شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات .أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري تحقيق عبد السلام هارون – صفحة ٣٧٨، دار المعارف ، ١٩٦٣م

وتختلف نظرة وكيل النيابة – بطل الرواية– إلىٰ الشخصية في روايته باختلاف مكانتها العلمية ودرجة ثقافتها، وقد تهيأ لبطل الرواية – بحكم عمله – رؤية شخصيات الرواية عن كثب والتحدث إليها، ومن ثم استطاع الحكم عليها وبيّن أبعادها المختلفة من مادي واجتماعي ونفسي وأيدلوجي.

ويعنىٰ الحكيم بتحديد معالم الشخصية وأبعادها بهدف تحديد نوع القضية المتهمة فيها، ونوع المخالفة: فصاح قزمان أفندي باسم المخالف التالي، فظهر رجل من المزارعين يبدو من زرقة «شال» عمامته «المزهرة» ومن جلبابه الكشمير وعباءته الجوخ الأمبريال وحذائه «اللستيك» الفاقع في صفرته، أنه علىٰ جانب من اليسار واستواء الحال. فما أن مثل حتىٰ ابتدره القاضي : أنت يا شيخ، أنت متهم بأنك لم تسجل كلبك في الميعاد القانوني. فتنحنح الرجل وهز رأسه وتمتم كأنه يستغفر ويسترجع.: عشنا وشفنا الكلاب تتسجل «زي الأطيان» وتبقىٰ لها حيثية! : غرامة عشرين... غيره.(١)

وفي تحديد البعد الجسمي المادي لشخصية «ريم»– تلك الغادة الغانية : التي وقفت بعتبة الباب في لباسها الأسود الطويل كأنها دمية من الأبنوس طعمت في موضع الوجه بالعاج – التماس العذر لما يترتب عليه من ردود أفعال ،كإكبار وانبهار كل من كان في جلسة التحقيق بجمالها ،من وكيل النيابة إلىٰ الشيخ عصفور: ... فوجهها العمدة إليّ فوقفت في وجهي ورفعت إليّ رمشين... ولأول مرة يرتج عليّ في التحقيق فلم أدر كيف أسألها. وأخذ الحكيم يصور ردة فعل كل واحد من الجالسين لمرأىٰ هذه الحسناء : ...حقًا إن للجمال لهيبة. ورأيت أن أملك سريعا ناصية نفسي قبل أن ينكشف الأمر، فقلت لصاحبة الجمال وأنا أكبح عيني حتىٰ لا

(١) – يوميات نائب في الأرياف، ٣٢.

أنظر إليها، اسمك؟ ريم لفظته في صوت هزّ نفسي كما تهز الوتر أنامل رقيقة، فما شككت في أن صوتي سيتهدج إن ألقيت عليها سؤالا آخر فتريثت... واستجمعت ما بقي عندي من شتات القوة والعزم وهجمت بأسئلة لا أنتظر الجواب عنها إلا جملة، وقلت لها تكلمي في كل هذا...

– جنح الحكيم إلىٰ تصوير شخصياته من خلال حركاتهم وسكناتهم، ومواقفهم في حديثهم.

فيوميات نائب في الأرياف تميل إلىٰ الطابع المسرحي الدرامي لأن أبطالها لم يحرمونا من تصوير حركاتهم، فهم يرتسمون أمام القارئ وهم يفعلون "وبهم تكتسب القصة طابعًا دراميًا.[1]

وإذا كان لكل شخصية من شخصيات الرواية آراؤها الاجتماعية والفلسفية والعاطفية التي يكشف عنها سلوكها وحديثها في القصة، فلبطل الرواية "النائب" آراؤه أيضًا ،التي تتراءىٰ من وراء الشخصيات والمواقف ،وقد نجح في إبداء آرائه في شخصيات الرواية من ذلك رأيه في القاضيين اللذين يتناوبان علىٰ المحكمة، ورأيه في مساعده، والمأمور وبعض العُمَد، بل وبعض المخالفين الماثلين أمام المحكمة والنيابة، وآراؤه في أهل الريف "... ودخلت حجرة المداولة فوجدت القاضي في الانتظار، وما كدت أرىٰ وجه القاضي حتىٰ وجِمت ففي المحكمة قاضيان يتناوبان العمل... "

البيئة والشخصية

صلة الشخصية بالبيئة صلة وثيقة فالبيئة تلعب دورًا فاعلًا في تصوير أحداثها ، وتطوير شخصياتها. وبدت البيئة مرتبطة بمجتمعها في الفترة الزمنية التي حوتها القضية ارتباطًا وثيقًا – ولا غرو – فقد صار الكُتّاب منذ الواقعية "يعنون كل العناية

(١) – النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال ص٥١٥، طبعة نهضة مصر بالفجالة.

ببعث البيئة الفكرية والاجتماعية والطبيعية للطبقات والشخصيات، وما يستلزم ذلك من تصوير العصر تصويرًا دقيقًا حول شخصيات القصة وأحداثها(١)

سلط الحكيم في روايته " يوميات نائب في الأرياف" الضوء علىٰ الغرض الرئيس منها وهو إبراز الجانب المظلم في الريف المصري' وفساد المنظومتين الإدارية والقضائية وعجزهما عن تحقيق العدل بين الفلاحين والراوي عمد الىٰ التقاط بعض الصور الحيه من القضايا بأنواعها ' وصور من الحكم فيها بما يدلل علىٰ صحة رأيه.

وقد أحيا الحكيم في يومياته كل معالم الفترة التي جعلها مجال أحداثه وأبطاله وخالطهم في المحاكم والمجالس قبل أن يؤلف روايته.

كما نجح في سبر أغوار الشخصية، ومرد هذا هو أن شخصياته مصدرهم الواقع ومن ثم فقد صار سلوكهم معللًا في دوافعه العامة ونوازعهم مفسرة نوعًا من التفسير"(٢)

والشخصية في" يوميات نائب في الأرياف " من ذوات المستوىٰ الواحد ،فهي شخصية بسيطة في صراعها وتمثل صفة واحدة في الرواية ،فصفة القاضيين تلازم كلا منهما طوال الرواية وكذلك صفة المأمور والشيخ عصفور –ومساعده– وهذا النوع من الشخصية يفتقد عنصر المفاجأة فما دامت تمثل صفة واحدة فمن السهل إذن معرفة توجهاتها إزاء الأحداث أو الشخصيات الأخرىٰ.

والشخصيات في الرواية تنقسم إلى نوعين:

الأول: رجال الحكومة: ويمثلها القاضيين، المتسرع وذا الوسواس والقاضي الشرعي. ورجال النيابة ورجال الشرطة وعلىٰ رأسهم المأمور ثم العُمد.

(١) – النقد الأدبي الحديث، ص٥٢٤.

(٢) – السابق، ص٥٢٦.

النوع الثاني: المدنيون: وهم الفلاحون والمتهمون والمجني عليه قمر الدولة علوان والفتاه ريم وبعض النسوة.

وفي الرواية يتنامىٰ الحدث علىٰ يد هؤلاء وهؤلاء حتىٰ يصل إلىٰ ذروته بموت الفتاه ريم التي كانت مفتاحا من مفاتيح القضية .

وقد حوت الرواية العديد من الشخصيات المحورية" و"الثانوية" فمن المحورية:

- النائب: وهو بطل الرواية' ،له دور حيوي فيها، إذ يلعب دورا رئيسا في تحريك الأحداث واتصال بعضها ببعض كما أن له علاقة قوية بدورانها حول العديد من الشخصيات في الرواية'. ويبدو في الرواية كثير التأفف والضجر لما يعيشه في هذا الريف بين جلسات المحاكم التي لا تحوي قضايا ذات بال من ناحية' وتحاكم الريفيين بقوانين يجهلونها وبدستور استوردت معظم مواده من الخارج من ناحية أخرىٰ.:" .... يظهر أن حضور جلسات المحاكم وضبط قضايا التلبس في النهار' وقيد وارد الجنح والمخالفات في المساء' والانتقال لتحقيق وقائع الجنايات بالليل كل هذا لا يكفىٰ وكيل النيابة في الأرياف ؛فهو ما زال يجد وقتا يتنفس فيه....فلتسد عليه إذن مسالك الهواء بأكوام الأوراق التافهة الآتية من المركز باسم "الشكاوي" والعوارض" "والأحوال .[1]

وهو نائب يسعىٰ للحفاظ علىٰ هيبته ووقاره، لذا تراه لا يغشىٰ النادي الذي يقع في دائرة المركز إذ يضم زمرة من رجال الإدارة ، الذين اعتادوا ارتياده ولعب القمار فيه وقد يشربون فيه الخمر.

(١) - يوميات نائب في الأرياف ، ص ١٣٦.

– قمر الدولة علوان: ذلك الشاب الوسيم القسيم' الذي ضُرب بعيار ناري من مجهول ،والذي دارت معظم الرواية حول البحث عن ضاربه ، محور رئيس جرت الحوادث حوله، فلولا ضربه ما كان هناك تحقيق ولا ريم ولا الشيخ عصفور فهو إذا من الشخصيات التي لها حضور في الرواية

– الشيخ عصفور: شخصية معقدة، يغني أغنية واحده بعينها، تدور حول جمال المرأة وموتها وبدعها، صاحب نبوأت، ومن العجيب أن يصدُق بعضها، ذلك الرجل الذي لا يفرح بشيء فرحه بخروجه إلىٰ الحوادث مع النيابة والبوليس .

– رئيس النيابة العليا: شخصيته لعبت دورا رئيسا في إيضاح ما يعني النيابة وكيف أنها تعنىٰ بالشكل دون الجوهر،فوزن المحضر أهم عنده من محتواه ووضع نهاية للقضية أيا كانت أهم عنده من أن تظل مفتوحة لم توضع لها نهاية .

– المأمور: شخصية لها نفوذها ،ساعد في تطور الأحداث .جل همها تنفيذ أوامر الجهات العليا بصرف النظر عما كان هذا يتعارض مع مصلحة الأهالي المساكين وحريتهم أو يوافقها، فهو يزور الانتخابات، ويحبس أبناء الأعيان قسرا دون جريرة حتىٰ تتم العملية الانتخابية ، ساعد في تطور الأحداث .

– مساعد وكيل النيابة: شاب رقيق الحاشية 'شديد الذكاء ،قوي الملاحظة' لعب دورا ثانويا في الرواية

– ريم : غانية، في حداثة سنها ، أخت زوجة المضروب قمر الدولة علوان التي ماتت منذ عامين ،و التي تأكد للنيابة– بعد التحري – أنها ماتت مخنوقة،غامضة ماكرة ، فهي: ... ذات نفس كدغل البوص والقصب ،حيرت النائب .... فإن كان مكر مثل هذه البُنية الرقيقة يجوز علىٰ أمثالنا فأحرىٰ بنا أن نوضع في مرابط البقر لا أن توضع أمامنا نفوس الناس نستطلع مجاهلها ونستكشف أسرارها. (١)

(١) – يوميات نائب في الأرياف ، ص ٦٤.

وهناك شخصيات لا يمثلون دورا جديرا بالذكر في هذه الرواية ورغم ذلك فقد أسهمت في واقعية الحدث وتماسك الحبكة القصصية .

منهم : المحضر :قزمان أفندي رئيس القلم الجنائي :عبد المقصود أفندي :كاتب التحقيق سعيد أفندي ،وفراش المحكمة: الحاج خميس وملاحظ النقطة، :البش جاويش عبد النبي .

وإذا يممنا شطرنا نحو شخصيات حقي في مذكراته خليها علىٰ الله ، نجد نجاحا وتوفيقا- أيضا- فقد صور الرجل الصعيدي ومهابته في أماكن الإقامة الاختيارية: الحقل، الطريق، البيت، والإقامة الإجبارية: السجن، . تجده يصف أحد شباب منفلوط وهو خلف القضبان، في جناية قتل والمفارقة في موقف هذا الشاب ، فبدل أن يكون مكروبا مهتمًا: يقف في الزنزانة كالأسد.. إذا اقترب مني وقبض بيديه علىٰ القوائم الحديدية ملأ صدره شُرّاعة الباب وفاض علىٰ الجانبين، يستقبل الزوار كالضيوف، ويطلب لهم شايا، وجدت العساكر والخفر في خدمته وبقية المساجين - بلا سعي منه- يعاملونه كأنهم أتباع له، لم يكن مسجونًا بل معتكفًا يستظل هنيهة تحت سقيفة هربا من حرّ الشمس". (١).

- والشخصية عند حقي أسهمت بشكل كبير في إعطاء تصور كبير عن المجتمع الذي عاشت فيه، وعن الكثير من الجوانب الفكرية والثقافية له، ومرد ذلك سعة المدة الزمنية التي استوعبتها مذكرات حقي قياسا بالزمن الذي استوعبته رواية الحكيم.

- وشخصيات حقي منها البسيطة والمعقدة، ومنها الملتزمة بالقيم وغير الملتزمة. كما هو الحال في مقاله عن"إبراهيم الهلباوي" فقد سرد موقفه أثناء عمله بالمحاماة من شهداء دنشواي، وموقف الشعب منه بعد ذلك حين كان عضوا

(١) - خليها علىٰ الله، ص٢٢٠.

في حزب الأحرار الدستوريين.[١] وكذلك قصة الخمارة [٢] وسرده كذلك لمواقف أستاذه عبد الحميد أبو هيف[٣] في مقاله أساتذة وزملاء وكذلك في قصة " احتضار" [٤]

- اتصال حقي بصوره القلمية اتصالا مباشرا أضاف إليها بعدا آخر غير الذي عرفت به بين الناس، ويتلخص هذا البعد في وجهة نظر الكاتب في الصورة وانطباعها في ذهنه.

- يجنح حقي إلىٰ الملامح التعريفية للشخصية كالطول والقصر والنحافة والبدانة لينفذ من خلال ذلك إلىٰ تسليط الضوء علىٰ الجوانب الخُلقية، وردود أفعال الشخصية التي هي الغاية من الصورة.

- مزج حقي في صوره بين الوصف والسرد ، ولعل طبيعة المذكرات وما تقتضيه من الوصف والسرد كانت وراء هذا الميل ، ومن الإنصاف أن يبين البحث أن السرد في صور حقي ليس سردا جافا مواتا بل هو سرد حي يشع بالحركة والحياة ، ولعل ما دفع حقي إلىٰ السرد في كثير من صوره، هو البعد الزمني بين زمن وقوع صوره وزمن كتابتها ،الأمر الذي يوحي بضرورة نسيان بعض الحوارات ، وهو الكاتب الذي تلمس لهذه الصور ما تقتضيه حتىٰ يحقق لها ما يتطلبه من الواقعية .

- الصورة في مذكرات حقي لا تعدو أن تكون جزءا من سيرته الذاتية إذ إنه كان يرسم صوره بحكم العمل أو الصداقة أو الاحتكاك المباشر بالشخصية التي رسمتها ريشته وقدمها من وجهة نظره هو.

---

(١) - خليها علىٰ الله ، ص، ١٢ .

(٢) - السابق، ص،٢٤٤ .

(٣) - السابق ، ص٣٨.

(٤) - السابق، ٥٠

– بقدر ما أضاءت لوحات حقي وصوره القلمية جوانب من حياة الشخصية التي صورها، فإنها كشفت عن الكثير من الجوانب لشخصية حقي نفسه ، فقد تحدثت عن جانب من تعليمه وأعماله وأسفاره وتنقلاته وصداقاته وميوله وغيرها الكثير.

- المكان

لا شك أن للمكان دور فاعل في العمل الروائي إذ يسهم في إرساء تقاليد اجتماعية وسياسية تنسجم والرؤية السردية التي تنهض بها الرواية.

و هو من أهم عناصر البناء القصصي الذي تدور فيه الأحداث وتتحرك الشخصيات، يلعب دورا مهما في توضيح المضمون الاجتماعي والسياسي للقصة.

وللمكان دلالته عند الكاتبين. فقد ألقىٰ كل من الحكيم و حقي الضوء علىٰ المكان الذي عملا به، فقد عكس تصوير الحكيم وحقي للصعيد شح الطبيعة وجفافها وانعكاس ذلك علىٰ أهلها- فالحكيم يصور طبيعة المكان في ديروط : ...الواقع أنها بلاد قريبة من الفطرة و الوحشية ! هذا الوجه القبلي من مصر شيء مخيف لساكن الوجه البحري، إن المرأة هناك شبح لا يرىٰ ولا ينبغي أن يرىٰ وهي مخلوق جاف لا فرق بينها هناك وبين الرجل .كلاهما في الجسم والطبع والروح كتلك الأرض السوداء التي يعيشان عليها وقد جف عنها النيل في زمن التحاريق. آدميون قد جف عن تركيبهم ذلك الماء الذي فيه سر امتياز الآدميين[1].

والمكان علىٰ هذا يمثل بؤرة مركزية في الرواية تشد حركة السرد وتحتضن الأفعال والأحداث.

(١) – يوميات نائب في الأرياف، ١٤١..

وقد آثر الحكيم لفظة "الأرياف" بصيغه الجمع لما ينطوي عليه الرأي في جعل القرية دلالة علىٰ الريف المصري كله ومن ثم فما دوّنّه لا يهم هذه القرية فحسب بل يتسع ليستغرق الأرياف المصرية جميعا(١).

والمكان في اليوميات مكان واقعي فعلي ، لم يتخيله الكاتب، يعرفه قبل تسجيله ليومياته.

وقد وفق الحكيم حين عمد- في كثير من المواضع في وصف المكان- إلىٰ التفصيل والتدقيق ومن ثم أصبحت هذه الجزئيات دوال ناطقة بمعنىٰ الحياة في الريف .

ولعل أبرز أثار البيئة الريفية عند الكاتبين ارتباطها بالجريمة ، ونموها فيها حتىٰ لنجد قرية كأبنوب تأتي في المرتبة الثانية بعد شيكاغو في معدل الجريمة.

وبين الزمان والمكان في اليوميات وشائج في تشكيل الجريمة ونوعيتها، فان لكل نوع من الزرع محصوله من الجرائم : فمع ارتفاع الذرة والقصب يبدأ موسم «القتل بالعيار» ومع اصفرار القمح والشعير يظهر الحريق «بالجاز والقوالح» ومع اخضرار القطن يكثر «التقليع والإتلاف...(٢)

والمكان الخارجي ويقصد به "المحتوىٰ العام" كنوعية الشكاوي والعوارض والجرائم ماهي إلا دوال علىٰ حياة الفقر والعوز في هذه الأرياف . فسرقة كوز ذرة لسد الجوعة ،وانتشال الملابس من الترعة لستر البدن، وقتل المطلقة من أجل التحلل من النفقة ،والتحقيق فيما جرىٰ بين ست الدار و جارتها قطايف من تبادل

(١) - دلالة المكان في رواية " يوميات نائب في الأرياف ،لتوفيق الحكيم ، مجلة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ، ص ٢٧. ، المجلد٨/العدد/٢/ A. تاريخ الاستلام ٢٣/ ١/ ٢٠١٨م.

(٢) - يوميات نائب في الأرياف، ص٢٨.

الردح والسباب، وهروب جحش من أمام الدار وإصابة قدم طفل داس علىٰ قطعة زجاج ، وبهذا تصبح الأماكن معبرة ودالة علىٰ ما يقع فيها وعليها من أحداث،

ولغة اليوميات تعكس طبيعة وثقافة ونفسية من يتحرك في هذه الأرياف ويمشي عليها من شخصيات ،حتىٰ الوافدين عليها من أهل الحاضرة. فالحكيم نفسه تأفف من الريف رغم أنه مفجر ينبوع تجربته، إذ فجرت لديه طاقات هائلة من التصوير والوصف، تبلورت في هذا العمل الرائع "يوميات نائب في الأرياف".

كما شكلت في ذهن حقي العديد من اللوحات القصصية عن هذه الأرياف التي يعتبر- علىٰ حد علمي- أول من فض بكارتها وفجّر ينبوعها .من خلالها تعرفنا علىٰ مشاكل أهل الريف وأبرز قضاياهم.

-ترصد في اليوميات وخليها علىٰ الله معجما للأشياء في البيئة الريفية، بدءا من الأساس والملابس والحيوانات وأدوات الزراعة، حتىٰ أبسط الأشياء وأقلها كالكوب والدواة والقلم حتىٰ الأطعمة. هذه السجلات الدلالية إنما تكسب دلالتها المعمقة من ارتباطها بمكان مخصوص هو الأرياف، وهذه السجلات التي تخص البيئة الريفية لا تفهم حقيقه الفهم إلا في هذه البيئة .

ولا شك أن لكل مكان بعد اجتماعي "إذ يجعل من المساحة الكونية للمكان مساحة بشرية محددة بسمات اجتماعية ... لها ملامحها المميزة والفارقة عن غيرها" (١)

والجريمة باعتبارها لغة معبرة عن طبيعة المكان الذي تحدث فيه وما أدواتها من هراوة وفأس... إلا مفرداتها التي تكون معجمها علىٰ نظام مسبق هو الخطط التي توضع طبق المواسم الزراعية، والظلام وغير ذلك من لوازم الجريمة.

(١) – استراتيجية المكان ،مصطفىٰ الضبع ، ص ١٣٠،١

حرص النائب علىٰ بيان طبيعة الجرائم التي ينسجها المكان إذ تمثل جريمة القتل الحدث الرئيس التي تدور حوله اليوميات، كما أن هناك جرائم صغيرة تشي ببساطة أهل الريف وفقرهم وعوزهم ،مثل غسل الملابس في الترعة، عض امرأة أصبع جارها، ونحو ذلك التقابل ينزع من الفرح والحزن ومن علاماته الولولة والزغاريد.

ومن أبعاد المكان في يوميات نائب في الأرياف البعد النفسي الانفعالي للمكان، ويتجلىٰ ذلك في الريف الموحش ونظرة أهل المدن إليه، فالهدوء وحشة والخلاء قفر والاتساع ضرب من الموات يبعث علىٰ الكآبة ،لذا لا يأنف حقي من التصريح بترك الخدمة والتسكع علىٰ الصبح عمدا كدلالة علىٰ التمرد، وكذلك كثرة التردد علىٰ المقاهي ،الخ. يتجاوب في هذا المكان أصوات الضفادع

والليل في هذه الأرياف عند الحكيم سجّان، لذا فان هذا المكان الموات لا يقارن بحياة المدينة الصاخبة والمليئة بوسائل اللهو والمتعة والحياه ،إنه لا يكاد يرىٰ فيه غير مبانٍ أكثرها متهدم ،وغير هذه البحور المسقفة بحطب القش والذرة يأوي إليها الفلاحون إن الليل يهجم علىٰ البلدة منذ الغروب.

ويرىٰ صباح هابس السويفان أن علاقة الراوي " الحكيم " باليوميات علاقة سطحية بمعنىٰ أنها علاقة فوقية ترصد ولا تختلق، فليس المكان عنده سوىٰ تلك البقعة التي يروي من خلالها أحداث حدثت له وأمامه.[1]

وبعد. فالمكان في اليوميات سواء كان مغلقا كالمحكمة ودار النيابة والصيدلية أو مفتوحا كالطريق والحقل يستطيع أن يكوّن لدينا رؤية شاملة عن بيئة الريف المصري وما لها من أثر في الحدث والشخوص.

(١)- دلالة المكان في رواية " يوميات نائب في الأرياف ،لتوفيق الحكيم ، مجلة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ، ص ٥٠،المجلد٨/ العدد/ ٢/ A. تاريخ الاستلام ٢٣/ ١/ ٢٠١٨م

وبما أن "فكرة التجوال" ملكت علىٰ حقي حواسه ووجدانه فقد ظهرت ملامحها جلية في كتاباته بما عكسته مرآته عن مشاهد أدبية وصفية عن كثير من الأماكن. : "... كنت أسير في حالي وحدي غير مكروش ولا متسكع، فقد نشأت معرفة جيدة بيني وبين قدمي وابتسمت حين تنبهت للطريقة التي أمشي بها .[١]

وشغل المكان في مذكرات يحيىٰ حقي مساحة واسعة، ولا نبالغ إذا قلنا إن حقي كان كالمرشد في رحلة سياحية ماتعة حول العالم، نعم فقد عرفنا بأماكن كثيرة في بلدنا وعند الآخر،. ومما يحسب له أنه لم يمر علىٰ هذه الأماكن مرور الكرام بل بين لنا موقعها وجوّها، وحركة النقل فيها وحالتها الاقتصادية، بل وأخلاق أهلها في كثير من الأحيان.

عرفنا بثغر الإسكندرية، ومنفلوط ودمنهور ورشيد. " فيقول عن رشيد : ... حسبتها قريبة من الإسكندرية، كنا لا نبلغها إلا بعد ثلاث ساعات ونصف من الإسكندرية في قطار بطيء نتأمل من النافذة صفوفًا لا تنتهي من النخيل والتين الشوكي "علىٰ اليمين صفحة هادئة لا تتحرك هي بحيرة إدكو، وعلىٰ الشمال رمال ورمال..."حدثنا عن نسائها وملبسهن ورجالها وملبسهم، عن أسمائهم الغربية التي تنتهي «بواو ممدودة» مثل «جادو»، حدثنا عن فقرها رغم شهرتها بالفسيخ والسردين والسمان والليمون والسيرج والبلح الزغلول ،: "في المحطات يعرض علينا سمك مشوي لنشتريه"[٢]

– دخلنا معه الكثير من الحارات في القاهرة وغيرها. زرنا معه الإصلاحية ورأينا مآخذه عليها، أدخلنا بيوت العُمد والفلاحين، عرفنا بجسور الصعيد وما حولها ومزارعها، واستضافنا في بيته في حي السيدة زينب، عرّفنا بأخلاق أسرته وعاداتها في

(١)– من باب العشم، يحيىٰ حقي، ص ٩٣. نهضة مصر بالفجالة.

(٢) – خليها علىٰ الله، ص٧٧.

المناسبات ، زرنا معه مدرسته وعرفنا بأساتذته وأخلاقهم ، أخذ لنا تصريحا لدخول المحاكم، شاهدنا معه المرافعات والقضاة وأسلوبهم والمحامين ووسائلهم . عرفنا بمدلول المحاكم المختلطة، وتدخل الأجانب في مقدرات بلادنا وكيف أسهمت في تدهورنا.

– أشار إلىٰ أنه استمع في الجمعية الوطنية الفرنسية إلىٰ دلاديبه وبول رينو، وجول موك اليهودي في معرض بيانه عن نفوره من المبالغة في الحركة والإشارة ورفع الصوت وخفضه في الخطابة ، وهذا بلا شك يوقفنا علىٰ طرف من سيرته الذاتية وميوله الأدبية .

وحين يعني حقي بتحديد المكان فإنه يريد التنبيه إلىٰ أمر ذي بال وخطر، كما هو الشأن في مقاله "تنفيذ حكم الطاعة" إذ يتعجب فيه مما تطلق عليه الحكومة في تخطيطها السكاني "كفرا" ويرىٰ أن إطلاق اسم الكهوف علىٰ منازل ذلك الكفر أولىٰ وأدل. "[1] .فأخذنا الىٰ كفر الشيخ مبارك بمنفلوط الذي هبطه أثناء قيامه بتنفيذ حكم الطاعة علىٰ أحد الزوجات ، ويتعجب لمرأىٰ هذا الكفر ،فما هو إلا كوما صغيرا من كهوف متلاحقة في حضن جسر الإبراهيمية بارتفاع مترين، : ..هيهات أن تسمىٰ في أي قاموس في العالم باسم منازل، يكاد لا يصل سطحها إلىٰ مستوىٰ الجسر، مغطاة بالبوص والقش كأن حصيرة واحدة تغطي الكفر كله كلها من الطين الجالوص... فلا خوف من الوقوع لأهبط منها إلىٰ الأرض أمام منزل الزوجية _فقلت في نفسي، وأنا فوق السطح أين الطريق القبلي وأين الطريق البحري_ الذي نُص عليهما في حكم الطاعة أحنيت رأسي وأعلم أنني قصير القامة ودخلتُ سردابًا ليس به جنس متاع، أرضه مغطاة إلىٰ الركبة ببوص الأذرة، ورأيت

(١) – خليها علىٰ الله، ص٢٤٩، ٢٥٠.

فيه فتاة تجري في أنحائه مذعورة تخرخش في البوص، فقبضنا عليها ورفعناها إلىٰ سرداب مماثل في بيت مجاور.(١)

فكلمة كهوف تعكس هيئة هذه المنازل التي هي في ضيقها وعدم تنظيمها كالمغارات، كما أن كلمة سرداب التي تحمل معنىٰ الطابق من بناء تحت الأرض ، تعكس انخفاض مستوىٰ هذه المباني ، ما يوحي بوحشتها وظلمتها في نفس الوقت، وهذا بدوره يبعث علىٰ الكآبة ويدعو إلىٰ التمرد والعصيان.

إن تسليط الضوء علىٰ مثل هذه المنازل يعكس حسرة مريرة علىٰ هؤلاء الفلاحين الفقراء الذين يعيشون علىٰ هامش الحياة، يتناوبهم الفقر والجهل والمرض.

ولا نكون مبالغين إذا استنتج البحث أن بين المكان وقاطنيه وشائج وسمات مشتركة، فالصعيد يتناوبه الخصب والجفاف، شح الطبيعة وجودها هذه الحياة الخشنة الصارمة تنتقل عدواها إلىٰ الأهالي فطبعوا علىٰ الجلد وشدة التحمل وجميل الصبر ".. منذ صغري ألحظ في زملائي أبناء الصعيد في المدرسة رجولة ونخوة وشهامة وجلدًا ثم _وهو الأهم عندي_ قدرة أشبه بالغريزة علىٰ تناول الحياة حلوها ومرها كما تلقاهم ويلقونها _لا يفسد تمتعهم بها ابتلاء بالتهيب،.(٢)

وبعد فقد ضمت مذكرات حقي "خليها علىٰ الله" العديد من الصور الوجدانية عن منفلوط وأريافها. والقاهرة وشوارعها ،وغيرهما الكثير. ولعله كان يرمي وراء ذلك الحفاظ علىٰ ذاكرة وطننا الغالي "مصر" ،والحيلولة بين هذا الحفاظ وما يسمىٰ "بالنسيان الثقافي" تلك النزعة الجديدة التي شاعت في العصر الحديث التي

(١) – خليها علىٰ الله، ص٢٥٠.

(٢) – ينظر مبحث الفقر.

ترمي إلىٰ تدمير الماضي وتلاشيه[١] كما قال هوبسباوم " :فإن معظم الأجيال الجديدة تنشأ في حاضر يفتقر إلىٰ علاقة عضوية بالماضي.[٢]

وقد اهتم في مشاهده القصصية بالعناصر التأملية بالصورة والحركة والصوت كما كشفت عن حس مرهف وقدرة عالية علىٰ التحليل.

- **الزمن**

إذا كان المكان هو الوعاء الذي تدور فيه الأحداث وتتحرك فيه الشخصيات لتكشف لنا حركة الزمان والتغيير الذي يطرأ علىٰ الأشياء والناس، فإن الزمان له دلالته الخاصة وانعكاسها علىٰ الشخصية عند حقي - خاصة – " فالليل سجّان له يد سوداء تغلق الأبواب عند غروب الشمس علىٰ الإنسان والحيوان"، فقد عكس الزمان عنده طبيعة الحياة في الصعيد ورغم هذا السجن الذي فرضته البيئة علىٰ الإنسان والحيوان هناك، فهذا الليل بالنسبة لحقي ،هذا الشاب القاهري الذي طالما ذاق الذل والقهر في هذه البيئة : يشعر بسعادة الانطلاق إلىٰ عالم غامض يحس بسحره وعطره "كنت أشتاق إليه من قديم وأدرك أن مصريتي ومحبتي لبلدي لا تتمان إلا إذا اغتسلت في حوضه[٣]

---

(١) – مقال تأملات في "قاهره" يحيىٰ حقي سيد محمود، مجلة الفيصل نقلًا عن بول كونرتون كيف يغزو النسيان ذاكرة الحداثة، ترجمة علىٰ فرغلي، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠١٦م، ص١٥.

(٢)- وهوبسباوم: أريك جون أرنست هوبسباوم (١٩١٧_ ٢٠١٢م) مفكر ومؤلف بريطاني، مثقف ومؤرخ ماركسي من بين أشهر أعماله الثلاثية عن القرن التاسع عشر" عصر الثورة: أوروبا وعصر رأس المال، وعصر الإمبراطورية، . ينظر"هو بسباوم" الويكيبيديا الحرة.

(٢) – فحدثنا عن بيت الباشمهندس، نقلت لنا مرآته جسر الإبراهيمية

(٣) – خليها علىٰ الله، ص١٢٩.

ويصف معاناة العمال الذين يقضون نهارهم في العمل الشاق تحت وقدة الشمس، ورغم ما هم عليه من الإجهاد لا تسمع لهم شكوىٰ ولا ترىٰ منهم تزمرا: ... ... علىٰ جانبي الشريط وجسور الترع والمصارف وفوق السقالات، بين أرصفة الموانئ بواخر محملة بالفحم، جنس يحيل العمل من فوره إلىٰ وقدة الحُمَىٰ، يشبه النمل في دأبه وتبعثر أفراده وانتظام مجموعاته معا، إذا كان لا مفر من "الحزق"، فعيب أن يصدر من حلوقهم إلا متسترا في ترجيع جماعي لمقطع في أغنية ينشدها واحد منهم.:... لقد طوَّفت في بقاع الأرض فلم أرىٰ للصعيدي ندًا في تحمله الجهد.[١]

ويصور معاناته السهاد والأرق في أول ليلة له بالصعيد وتحديدًا في منفلوط – الساعة تمر عليه كاليوم.: ... ثم أخذ الليل يذوب ويضمحل شيئا فشيئا ،وفجأة عمّ ضوء وهّاج عنيف انتشلتني يده – كالغريق- من لجة الظلام. الساعة لم تبلغ الخامسة، أمامي ثلاث ساعات علىٰ الأقل لا أعرف كيف أقضيها فكان عذابها علي في النور أشد وقعًا من وساوس الليل البهيم كله[٢] ونلاحظ أن الزمن النفسي هو الأكثر حضورًا في هذه الصورة.

والصباح عند حقي مليء بالمفاجآت.[٣] كما في قصة الشاب الذي ادعىٰ علىٰ امرأة عجوز – قد غاب وحيدها منذ أكثر من عشرين عامًا – بأنه ابنها : ... طرقت بابها في الصباح يد لا تألفها فلما فتحته وجدت أمامها رجلًا... ثم إنها وهي تصعد السلم ذات صباح وبعد أن أعدت لحبيبها فطوره..."

(١) – خليها علىٰ الله، ص١٣١.

(٢) – السابق، ص١٣٨.

(٣) – السابق ، ص١٥٣.

والزمن يؤكد ما عرف عن حقي من العناية بالتحديد، كما يشي بواقعية الحدث وتنميته في نفس الوقت. فيذكر قصة الرجل الذي خدعه أحد النصابين بقوله: أن في منزله كنزا عظيما وعليه أن "يفحت "ويعمق "الفحت "حتىٰ يستخرجه فالقصة بدأت بالزمن وهو مجيء أحد جيران هذا المخدوع إليه في الصباح شاكيًا انزعاجه وأرقه مما يحدث في بيت جاره الذي يتمثل في "هبدٍ " طول الليل ثم ختمت بالزمن وهو ذهابه بعد العشاء ليتبين الأمر.

- والليل عند حقي رمز الأسىٰ والحسرة فبعد أن سرد قصة الفلاحين وقرار الحكومة بعدم زراعة أكثر من ثلث الزمام قطنًا ،وكيف وقف الفلاحون أمام هذا القرار مبهوتين محزونين ،وما كان من حقي من حرق وتقليع مساحة كبيرة من الزمام امتثالا لأوامر الحكومة، صور حسرة هؤلاء الأهالي إثر هذا الحدث :... وخرجت من القرية وقد لف الليل ما تراه عيني من أشخاص أحالهم إلي أشباح مطأطئي الرؤوس يمصمصون شفاههم عجبًا وحسرة...[1] وإذا كان الليل يبعث الأسىٰ في نفس حقي فإن الفجر يبعث في نفسه الراحة! والصفاء:.... ضارب أطنابه والدنيا طيبة الأعراف تستقبل صحيفة بكرا لم يسودها بعد سطر من الشرور. [2]

- كما عكس الزمن عنده أمرا جديرا بالاحترام والإشادة ،هو توق الناس في الصعيد - رغم ما عرف عنهم من حمية وسرعة انفعال - إلىٰ من يأخذ بأيديهم إلىٰ طريق السلامة والأمان، هذا الأمر يتمثل في وجود نفر في الصعيد يشتهرون «بالصلاح والتقوىٰ» يقومون بالإصلاح بين المتخاصمين ، ورأب الصدع الذي خلفه الثأر وغيره، واستلال الإحن والضغائن من الصدور وكيف ".... يلتف الفلاحون طوال

(١) - خليها علىٰ الله، ص١٦٥ وما بعدها.

(٢) - السابق، ص٢٤٥.

النهار ومعظم الليل حول الشيخ لا ترتكب جريمة واحدة يصالح الخصم خصمه ويسترد الرجل مطلقته ويعذر الدائن...[١]

وقد يتكرر الزمن عند حقي في اللوحة الواحدة أكثر من مرة لما يحويه من أثر سيئ وألم في نفسه لم تستطع السنين أن تهضمه ،كما في قصة خروجه مع لجنة المساحة لقياس أرض تسمىٰ ب"طرح البحر" وكيف عانىٰ في ذلك اليوم الجوع، فقد اقترب الظهر وولىٰ وأحس بالجوع، ثم اقترب العصر واشتد جوعه ،وظل يحلم في هذا اليوم بأكلة شاعرية تهبط عليهم من السماء لم تصنعها يد بشر ... وبعد غياب طويل من الخفير زاد فيه جوعه ،إذ به يعود وفي يده سرة منبعجة... وفُتحت السرة فإذا هي لا تحتوي إلا علىٰ خبز بائت وبصل مستدير.....، وظلت رائحة البصل تليس في فمه وحلقه إلىٰ صباح اليوم الثاني.

والزمن في الصعيد _كما عرفنا حقي_ يقاس بالليل والنهار لا بالساعة والدقيقة تمشيًا مع حياة هؤلاء البسطاء وطبيعة عملهم ،فجل أهل الصعيد مزارعون يغدون إلىٰ حقولهم مع طلوع الشمس، ثم يروحون إلىٰ منازلهم مع غروبها ،فالزمن عندهم يتحكم فيه النهار والليل .

وبعد .فالزمن كان معينا استقىٰ منه حقي الكثير من الصور القلمية الرائقة، كما عكس الكثير من صفات الناس والحيوان والجماد، وقد أعطىٰ الزمن لحقي مساحة كبيرة لعرض الكثير من الأفكار التي تعن له عنه التي تسهم في تشكيل الصورة الأدبية .والزمن في صور حقي زمن متقطع يعنىٰ فيه الكاتب بالموقف ومن ثم مال إلىٰ الاختصار.

❁❁❁❁❁

(١) –خليها علىٰ الله، ١٥٠.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضىٰ .

فبعد هذه الرحلة الماتعة مع كتابين يضمان زمنا هو من أخصب الأزمنة بالأحداث السياسية والوطنية أسفر البحث عن عدة نتائج من أهمها.

– أن الكتابين يمثلان ثروة فكرية وأدبية عظيمة تتمثل في إمداد القارئ بالعديد من المعلومات التي لا يجدها في كتب السياسة أو الاجتماع عن الشعب المصري .

– أن النشأة تتدخل بشكل فاعل في تشكيل الشخصية وبلورة العديد من سماتها وخصائصها.

– الموهبة الفطرية التي صقلتها الدراسة كفيلة بإنتاج أدب رائق غزير الفكرة سامي الهدف.

– كلما كان الأديب أكثر اندماجا وتفاعلا مع أبناء مجتمعه كان أغزر مادة، وأصدق عاطفة . وقد تفوق حقي علي الحكيم في هذا الجانب.

–عمر الكاتب زمن الكتابة جدير بصبغة الأسلوب بصبغة معينة، فلما كان الحكيم قد كتب يومياته وهو شاب مصورا فسادا ينبه إليه ويأمل في الإصلاح كان أكثر جرأة في النقد، بينما حقي كتب مصورا بؤسا بعد ثلاثين عاما من عمله معاونا للإدارة ثم جاءت ثورة يوليو ١٩٥٢ م واتخذت خطوات جادة نحو الإصلاح ، فكتاباته كانت سنة ١٩٥٩م بعد سبع سنوات من الثورة والطموح إلىٰ الإصلاح في ذروته.

- الجانب التثقيفي المتعلق بالجانب الإداري و القضائي كان أكثر بروزا عند الحكيم فدخلنا معه قاعة المحكمة وخزينتها ومخزن النيابة ومحتوياته ،والاستئجار علىٰ القتل وتحليل أسبابه. (١)

- انتماء الكاتب لمدرسة معينة كفيل بصبغة أدبه صبغة خاصة فلما كان حقي - أحد أبناء المدرسة الواقعية الحديثة - فقد مال بأدبه إلىٰ الاهتمام بقضايا المجتمع وإلىٰ صبغة أسلوبه بالسهولة بما يحمله هذا اللفظ من سهولة الكلمة والتركيب.... الخ.

- " يوميات نائب في الأرياف " عمل درامي بما ترتكز عليه الرواية من الحوار والتصوير بينما مذكرات " خليها علىٰ الله " أخذت شكل اللوحة القلمية بما تركز عليه من الوصف والسرد بالدرجة الأولىٰ.

- نجح كل من الحكيم وحقي في إعطائنا فكرة جيدة عن أريافنا ووقفنا علىٰ مشاكلهم وواقعهم المعيش و أهم قضاياهم.

- المغايرة لبيئة النشأة تعد رافدا مهما للتجربة ، ومن ثم تسني للكاتبين وصفها وصفا أخاذا.

- **التوصيات**

- يوصي البحث بعقد موازنة بين ما كتبه كل من الحكيم وحقي عن" **الحِمار**" إذ يمثل ما كتباه عنه قدرا كبيرا من مؤلفاتهم ، إضافة إلىٰ ما يحويانه علىٰ الكثير من التصوير والرموز.

(١) - يوميات نائب في الأرياف ص ١١٠

- لوحات حقي عن بعض الشخصيات - كإبراهيم الهلباوي وعبد الحميد أبو ضيف- يمكن الإفادة منها في الترجمة الغيرية إذ تمثل رؤية صادقة وواضحة عن هذه الشخصيات.

هذا... ولله الحمد على ما أنعم وأسدى.

المصادر والمراجع

أ – المصادر

- حقيبة في يد مسافر ، يحي حقي دار نهضة مصر بالفجالة، ١٩٦٩ م.
- خليها علىٰ الله ،القصص ٦، يحيي حقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٨٧م.
- دمعة فابتسامة ؛ الدعابة في المجتمع المصري ، يحي حقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٧٧م .
- سجن العمر، توفيق الحكيم، دار الشروق، الثانية، ٢٠٠٨م.
- فجر القصة المصرية، يحي حقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.
- ملامح داخلية: سيرة ذاتية، توفيق الحكيم دار الشروق ٢٠٠٧م.
- من فيض الكريم ،يحي حقي ،نهضة مصر للطباعة و النشر، ٢٠٠٠ م.
- يوميات نائب في الأرياف، مكتبة مصر بالفجالة ،رقم الإيداع ١٩٢٨/ ٨٨، دار مصر للطباعة.
- يوميات نائب في الأرياف ، توفيق الحكيم تقديم، أ/ أحمد حسن عوض، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر ،رقم الإيداع بدار الكتب القطرية، ٢٠١٢،٣٤٣م.

ب – المراجع

- الأدب الحميم في النثر الحديث ،منصور قيسومة ،الدار التونسية للكتاب ،٢٠١٢م.
- الأدب العربي الحديث ومذاهبه د. عبد الله خضر حمد – دار الفجر للنشر والتوزيع النزهة الجديدة القاهرة مصر ٢٠١٧م.
- ألاعيب الذاكرة سليمان فياض، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة اصدارات خاصة، ٤/ ١٦٤، ٢٠١٨م

- الأعمال النقدية الكاملة، جورج طرابيشي ، دار مدراك للنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الأولىٰ، ٢٠١٣م.
- استراتيجية المكان ،مصطفىٰ الضبع ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ، ١٩٩٨م
- تطور فن القصة القصيرة في مصر من ١٩١٠ م إلىٰ ١٩٣٣ م سيد حامد النساج، دار الكاتب العربي؛ القاهرة ١٩٦٨م
- توفيق الحكيم أثاره وكتاباته، د/ إسماعيل أدهم، د/ إبراهيم ناجي، مؤسسة هنداوي (طبعة ٢٠٢٢م).
- جمهرة مقالات محمود شاكر مقال:" يحيي حقي صديق الحياة الذي افتقدته" جمعها وقدم لها: الدكتور :عادل سليمان جمال :الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة .
- الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الطباعة المحمدية، ١٩٥٨م.
- دليل المسلم الجديد، فهد بن سالم باهمام، نشر: شركة الدليل المعاصر، السادسة: ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.
- ديوان "سقط الزند" أبي العلاء المعري شرح أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٢٠٠٧م.
- ديوان الإمام الشافعي أبي عبد الله محمد بن إدريس، شرح وضبط د/ عمر فاروق الطبّاع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت لبنان ٢٠١٦م.
- الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية) شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي المعروف بأبي شامة، علق عليه ، ابراهيم شمس الدين ،الجزء الثالث والرابع ٢٠٠٢م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الزمن في الرواية العربية، مها حسن قطراوي، طبعة ٢٠٠٤م.

- سبعون شمعة في حياة يحيىٰ حقي يوسف الشاروني الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م.
- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ، تحقيق عبد السلام هارون ،دار المعارف ، ١٩٦٣م
- شعرية تشكيل الحوار، قراءة في المجموعة القصصية "مدن وحقائب" تأليف دكتور/ سعدي المالح، دراسة : د/ بشير إبراهيم سوادي، د/ نبهان حسون العدوي، دار الضفاف للنشر والتوزيع، ط الأولىٰ ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م.
-الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ،د/ جابر عصفور،: المركز الثقافي العربي ١٩٩٢ م
- عشرة أدباء يتحدثون، فؤاد دوارة ، كتاب الهلال، العدد ١٧٢ يوليو ١٩٦٥م.
- عالم الأخطاء د/ باسل يونس الخياط، دار الكتب العلمية ببيروت- لبنان. ٢٠٢١م
- عطر القناديل مغامرة م... في عالم يحيىٰ حقي، مجيد إسحاق طوبيا، المجلس الأعلىٰ للثقافة، القاهرة، الأولىٰ ٢٠٠٥م
- عناق النيل واليانجستي" تاريخ التفاعلات بين مصر والصين" د/ حسانين فهمي حسين ، ٢٠٢٠ م، دار صفصافة للنشر والتوزيع.
- الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية : د / أنور الجندي ، بدون تاريخ.
- قمم أدبية، د نعمات أحمد فؤاد ، الطبعة الثانية، عالم الكتب،١٩٨٤ م .
- لسنا بمأمن ، لله جنود السماوات والأرض، دكتور: خالد فائق صديق العبيدي،، ٢٠٠٧، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان.

- المتوارث فى مصر الفرعونية، جلال أحمد أبو بكر، ٢٠١٤ م ، دار المعارف بمصر.
- المسرح الاجتماعي ذو الدعوة السياسية عند نعمان عاشور د محمد مبارك ، المركز العربي للإعلام ، ١٩٨٦.
- معجم المصطلحات الإعلامية، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- الموهبة العقلية من منظور علم نفس الشخصية، سفيان صائب المعاضيدي طبعة ٢٠١٤م.
- مصر الأسماء والأمثال والتعبيرات، محمد جبريل ،كتاب الجمهورية، كتاب رقمي ،٢٠١٠م .
- مصطلحات فكرية ، سامي خشبة، المكتبة الأكاديمية ١٩٩٤م .
- من أعلام الأدب المعاصر، جمال الدين الرمادي، دار الفكر العربي، ١٩٦٢م.
- المماليك الشراكسة، شفيق توفيق إسماعيل، دار رسلان للطباعة والنشر، دمشق، سوريا ٢٠٠٩م.
- نشأة المدن المصرية علىٰ ضفاف النيل ،كتاب رقمي، الأستاذ / علي محمود العبادي، نشر: حروف منثورة للنشر الإلكتروني.
- نظرية التعلم والعمليات العقلية د/ محمود الربيعي، د/ مازن عبد الهادي الشمري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٣م.
- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، نهضة مصر بالفجالة، بدون تاريخ.
- وتشرق شمس الأناضول، نسرين مهران ٢٠١٣ م ، دار نهضة مصر بالفجالة، القاهرة.

- يحي حقي ، الأديب صاحب القنديل، الدكتور/ فاروق عبد المعطي، سلسلة أعلام الأدباء ،جزء – ١٠٣، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ١٩٩٤م .

ج- المجلات والجرائد :

- مجلة الرسالة – العدد ٨٢٦ تعقيبات بتاريخ ٢/ ٥/ ١٩٤٩م، الأستاذ/ أنور المعداوي الفن بين واقع الفكر وواقع الحياة.
- مجله "الزهراء" كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة ١٤١٠هـ ١٩٩٠م، بحث ل د ، عبد الرحمن حسين محمد ، " يحيي حقي ومجموعته دماء وطين".
- مجلة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ، "دلالة المكان في رواية " يوميات نائب في الأرياف ،لتوفيق الحكيم ،، المجلد٨/ العدد/ ٢/ A. تاريخ الاستلام ٢٣/ ١/ ٢٠١٨م
- مجلة فيلولوجي عدد ،٥٦، يونيو ٢٠١١م بحث بعنوان" الوصف في مقالات يحي حقي، دراسة لغوية في كتاب " خليها علىٰ الله" نعيم أمين طلبة .
- مجلة الفيصل، مقال "تأملات في قاهره يحيىٰ حقي (سيد محمود)،٥٤٧، ٥٤٨، والعدد الفيصل العدد ١٩٣، قراءة في أخر كتبه خليها علىٰ الله ،عرض (عبد الرحمن شلش)
- مجلة حروف من نور، ٢٠١٤ م" مقال: رواية يوميات نائب في الأرياف، رؤية نقدية" المستشار الأديب، صالح شرف الدين ، المجلة الإلكترونية "حروف من نور" الفصل الخامس.
- جريدة الأهرام العدد ٣٨٧٢٨، ١٨/ ١٢/ ١٩٩٢م .
- جريدة المصري اليوم ... في ذكري مولده.. إنسانا وأديبا يحيي حقي.. أنشودة البساطة، الجمعة ٠١-٠٢-٢٠٠٨ م.|

- موقع مصراوي الإلكتروني : دراسة جامعية بالأزهر: الأمثال الشعبية.. تراث الأمة المهدد بالضياع، الباحث أحمد سعيد علي حسن، المدرس المساعد في قسم الثقافة الإسلامية١٣:٠١ م الخميس ١٩ يوليه، ٢٠١٨م
- جريدة الرياض السعودية مقال" مشوار الرأي خليها علىٰ الله" العدد ١٤٠٨٦، ١٧ يناير ٢٠٠٧ م.
- جريدة الوفد المصري ١٠ مارس ١٩٣٧م فوق سطح الحياة حدأتان تتناجيان، عباس حافظ
- ينظر مقال" نقاش" علىٰ الويكيبديا نقلا عن Nicholas. A ،Rescher cat says ruff Resolution. *Open Court: Chicago* ،*2001.*